هل كان للعرب مدنية عالمية؟

بماذا تفوقت المدنية العربية على المدنية اليونانية ؟

بقلم محمد جميل بيهم

* * *

تجتاز الافراد في طريقها الى التكامل مراحل متوالية مختلفة الالوان ، اولها مرحلة الطفولة . ومن خصائص هذه المرحلة شعور الاطفال بصورة عفوية طبيعية بافتقارهم الى ام تحتضنهم ، وتحنو عليهم . وهذا الشعور يخف تدريجيا في المراحل التالية بمقدار الاعتماد على النفس الذي يدركه الاولاد تباعا . غير ان هذا الشعور بالحاجة الى ما يقوم مقام الام في حمايتهم ، افرادا وجماعات ، يبقى كامنا في نفوسهم على شكل اخر ففي عهد البداوة يلتف الافراد حول شيخ القبيلة قصد الاستعانة به للدفاع عنهم وعن حقوقهم ، وفي عهد الحضارة يتكتلون حول الدولة وزعيمها بغية ضمان سلامتهم وانصافهم .

والامم في هذا الشعور لا تختلف عن الافراد والجماعات . فهي وان استقل بعضها عن بعض ، وذهبت مذاهب شتى في السياسة والعقيدة والفكر ، وان تحاربت احيانا بسبب اختلاف هذه النزعات تبقى متطلعة بدافع طبيعي ، الى اسطع كوكب منها لتدور في فلكه دوران النجوم حول الشمس .

وعملا بهذا القانون الطبيعي اقبل الناس على كل مدنية متفوقة في العصور الخالية والحاضرة ، واقتبسوا من انوارها ما استطاعوا الى ذلك سبيلا معتبرين هذه الانوار مشاعا للجميع . هذا كان شأنهم في عهود المدنيات المصرية، واليونانية، والعربية . وهذا شأنهم في عهد التمدن الحديث.

غير ان التعصب الديني الذي كان شائعا في فجر التمدن الحديث في كل العالم أوحى الى بعض المتعنتين من مؤرخي اوروبا اسقاط المدنية العربية من مرتبة المدنيات العالمية . وهي شنشنة وان لم يقدر لها الحياة من بعد في عهد الاستشراق الا ان مخلفاتها لا تزال باقية في بعض المدارس الاجنبية ، وبين المتخرجين منها ، في الغرب والشرق . فهل صحيح ان المدنية العربية لم تكن خلقة واحدة من سلسلة مدنيات العالم ؟

كلا ، بل كانت كذلك واكثر . وفضلا عن انها كانت من اظهر مدنيات القرون السالفة واخصبها، فقد كانت مدنية أمم ساهمت في بنائها ، والفت بلغتها في كل علم وفن حتى كادت مؤلفات الاعاجم بالعربية تكون اوفر عددا من اسفار العرب . وكانت الى ذلك مدنية العالم خلال ثلاثة قرون تبتديء بغرة القرن الثامن للميلاد ، وتنتهي بختام العاشر. وكانت بانتشارها ، وهيمنتها على سائر مدنيات العالم المعاصر اشبه شيء بالتمدن الحديث ، الشمس التي تدور حول محورها كواكب السماء .

وبعد فان الامم الفاتحة فئتان : فئة مدار همها اتساع الملك ، واخضاع الشعوب ، وادراك الفخار بالانتصار ، وفئة اخرى تسمو بها النفس الى ما فوق هذه الاماني . تسمو بها الى تزيين الملك بتاج من الحضارة هو اغنى وأثمن من تاج العروش .

والعرب كانوا من الفئة الثانية . لقد اصبحت تخفق منذ بداية القرن الثامن للميلاد على امصار تمتد من شمالي اسبانيا الى تخوم الصين ، واصبح البحر المتوسط في القرن التاسع بحرهم دون سواهم . واما القرن العاشر ، عصر العباسيين والفاطميين في الشرق ، وعصر الامويين والادارسة في الغرب فكان عصر العروبة في العالم بلا منازع.

ولكن العرب لم تشبع نهمهم الفتوحات ، وانما كانوا يحرصون على ان يتخذونها وسيلة لغاية اخرى .

وما ان صهروا في بوتقتهم العناصر الكثيرة حتى استعانوا بها لوضع مدنية جديدة تقوم على احسن قواعد العلم والعمران والاقتصاد .

لقد استعانوا منذ عهد الصحابة بالفرس على تنظيم جهاز الدولة ، ثم استعانوا بهؤلاء وبالسوريين والسريان والهنود وغيرهم على نقل الثقافة الى لغتهم . فأخذوا عن البابليين واليونان والفرس والهنود والسريان والمصريين . وقد بلغ من حرصهم على ذلك ان المأمون كتب الى تيولو فيلوس الامبراطور البيزنطي يرغب اليه ايفاد لاوون أحد مشاهير الرياضيين لبغداد ، وقال له :

لا تجعل اختلاف الدين حائلا دون اجابة هذا الرجاء ، بل افعل ما تحملك الصداقة عليه . وسأعطيك بدل ذلك مثقال مائة من الذهب ، واتحادا دائما وسلاما .

واستعانوا كذلك بالاختصاصيين من الامم لتشييد العمران يعاونهم على ذلك توفر المال في خزائنهم الى حد كبير . وكان مصدره الاول الفتوحات ، ثم كان مصدره الثاني التجارات والصناعات . وعلاوة على المدن الكثيرة التي انشأوها في الشرق كالبصرة والكوفة والفسطاط والقاهرة والرملة وبغداد وسامراء ، وغيرها في الاندلس والمغرب ، فقد عنوا ، منذ عهد الامويين ، في كل من الشام والاندلس ، باشادة القصور والمنشئات العامة كالمساجد والمدارس والمكتبات والبيمارستانات ، الى جانب تعبيد الطرق ، واقامة السبل والجسور والخانات فضلا عن اعمال الري التي لا تزال اثارها بارزة في اسبانيا بروز ما شيدوه فيها من الصروح .

ولما اجتمع عند العرب سعة الملك والعمران الى جانب توفر المال والعرفان ، واستأثروا بالتجارة في البر والبحر على السواء ، واصبحوا اسياد العالم ابتداء من القرن

الهوى المستبد

ألقيت في الاجتماع الاول للعروة الوثقى بلندن

يؤرقني هواك اذا استبدا ... واضرم في حنايا الصدر وجدا
أغالط فيك أوهامي وحسي ... وقد اعييتني هجرا وصدا
ولج بي الحنين فضاع رشدي ... وقبلك في الحوادث كنت جلدا
حمدت بك الشباب ، وحين ولى ... تولى العمر حلو العيش رغدا
بدت في مفرقي بيض الاماني ... وخط سوادها في القلب لحدا
يهدهدها الصبا فتثور غيرى ... على عبث الشبيبة ، ليس تهدا
أمان كل واحدة برزء ... أضيق ببعضها حصرا وعدا
وأدفنها ، فما تنفك تحيا ... مقهقهة ، وتأبى أن تردى
غدا يطوى الشباب ، فليت شعري ... متى يدنو غد ويحين عهدا ؟

* * *

ربيع العمر أيام تولت ... وكانت من رفيف الزهر أندى
ومثل قطافه عبقا وطيبا ... ومثل معينه صدرا ووردا
أرى الايام تطويني وتمضي ... كأن لها مع الاغيار وعدا
أجدد حبلها في كل يوم ... ويبلى حبلها جذبا وشدا
تناهى رقة ، ويكاد يودي ... ولولا حيلتي فيه لأودى ...

* * *

حبيبي ، والصب حلم تلاشى ... منى ، وانهار آمالا ومجدا
وبينك في الهوى العاتي وبيني ... تعلات مضت أخذا وردا
فما اجدى التعلل فيك يوما ... ولا صبري على المكروه اجدى
وقد نضب الشراب ، وتلك كأسي ... مرنحة تئن ضنى وجهدا

لندن

سعيد العيسى

من « العروة الوثقى »

الثامن للميلاد حتى ختام القرن العاشر ، حضارتهم حضارته، ولغتهم تكاد تكون لغته . فأتوا بذلك بما لم تستطعه الاوائل .

اجل ، لقد كان تمدن اليونان عالميا ايضا . ذلك لان التمدن لم يبق ضمن نطاق البلاد التي وضعته بل تجاوزها الى غيرها ، ولا سيما بعد الاسكندر الفاتح الكبير . فالثقافة اليونانية ، واللغة اليونانية اصبحتا منذ ذلك ثقافة الامم المتحضرة ، ولغة العلم فيها والسياسة خلال قرابة عشرة قرون . ولكن اليونان وكذلك الرومان لم يستطيعوا ان يحولوا شعوب الشرق عن لغتها ومذاهبها وعاداتها كما فعل العرب . فمصر وسوريا والعراق مثلا ، وان خضعت سياسيا لليونان فالرومان فالبيزنطيين ، الا انها احتفظت بلغاتها ، ومذاهبها ، وعاداتها ، ولم تتخل عنها .

واما في عهد العرب فان لغتهم ، التي واكبت فتوحاتهم، وعبرت عن حضارتهم لم تلبث الا قليلا حتى هزمت اللغات الاخرى ، واحتلت مكانها . وما اتى القرن الثامن للميلاد حتى اضحت لغة الانتاج العلمي والادبي ولغة التجارة والسياسة لشعوب تنتشر ما بين المحيط الاطلنتي وما بين التيبت والصين . وكذلك كان شأن دينهم وحضارتهم في الانتشار دون اكراه ولا اجبار . فهل يسوغ بعد كل ذلك التجني على العرب ؟

نحن لا نتوخى بهذا الحديث التنويه بهم حبا بالمفاخرة بالاجداد فالاعتزاز بالماضي لا يجدي نفعا الا من حيث حفز الهمم . وما يجدي الا البناء في الحاضر مثلما بنوا . ولكن الذي حملني على التعرض لهذا الموضوع ما نقرا ونسمع حتى الان من مزاعم شعوبية يرددها غربيون وشرقيون على السواء يتعمدون بها الحط من شأن العرب، والاستهانة بحضارتهم ، ثم هم لا يتورعون عن اسقاطها من مرتبة المدنيات العالمية .

محمد جميل بيهم

وداد سكاكيني

أختَ الخوالدِ أشرعي القَلَما حَلفَ المدادُ لَيمْحُوَنَّ دَمَا
قبَّلْتُ أنمُلَتَيْكِ واستعرت نيرانُ حبي تستبيحُ حِمى
فحمَلتُ قلبي للوداد ولي شَوْقٌ الى تسكابه وظَمَا

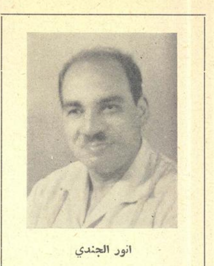
* * *

في شط « صَيداء » الذي طلعتْ منه التَّوالدُ تُنْبتُ الحُرَما
في سالفِ الأزمانِ غانيَةٌ كانت لديه تُزَحْزِحُ العَدَما
حتى أنجلَت أسطورةً ملأَتْ أُذْناً وجالتْ في الرُّواة فَمَا
هامت تعاشيبُ الهواء بها لتصوغ من أنفاسها نغَما
وسعى اليها البحر يلثُمُها لما دنت لتبلَّها قَدَما
والبرتقالُ على معاطِفِها قد ضمَّخَ الأَفياء حيثُ نَما
وتناسلتْ ، وتسلسلتْ أُمَمٌ حتى لبنانا عُمْرَنا شَمَا
فأتى فتىً والشامُ تحفِزُهُ بيَدِ الحُظوظ يغالب الهِمَما
ويَدُ الفتاة له مرَصَّدَةٌ قبلَ الوجود وسرُّها خُتِما
« قَيْسونُ » تاقت فيهِ قمَّتُهُ لنسيم لبنانٍ . فكانَ : هُما

* * *

قُصّي على الأجيالِ قِصَّتَنا نَحْنُ البُناة نُكوِّنُ الأُمما
فينا التقى الشَّعبانِ من أزَلٍ ونَظَلُّ للآباد طَيَّهُما
مِنْ نَثْرِكِ المشبوبِ خاطِرُهُ شِعْري تَفيَّأَ كَوْكَباً وهَمى
من وَحيكِ الرَّيانِ عاطِرُهُ كُتُبي وكَمْ جادَتْ لَديكِ سَما
اما الهوى فالعقلُ قيَّدَهُ . ليْلى ، انا المجنون ، وهْوَ رَمى

دمشق زكي المحاسني



انور الجندي

قاسم امين وسر دعوته الى تحرير المرأة

بقلم انور الجندي

* * *

بعد مرور اكثر من اربعة وخمسين عاما على وفاة قاسم امين ٢١\٤\١٩٠٨ تتكشف الاسرار التي دفعت هذا المستشار الاديب الى كتابة مؤلفه « تحرير المراة » ... فقد كان قاسم قبل ان يتعرض لهذا الامر من المستشارين الاعلام في محيط القانون والقضاء . كما عرف عنه كتابة عديد من الفصول ضمنها انتقاداته للمجتمع في عبارات مضيئة ونشرها في جريدة المؤيد ، غير انه لم يكن هناك ما يبدو انه سيتصدى لحمل لواء فكرة جديدة مثيرة تحدث ضجة. وتعرضه لحملات من جانب بعض المحافظين من رجال الدين ، وخصومة القصر ، ومناقشات الكتاب امثال محسن فريد وجدي وطلعت حرب وغيرهما .

غير ان الامر كان فيما يبدو اكبر من رغبة قاسم امين واتجاهه الخاص . فالذي يعرفه الناس جميعا ان قاسم اقتنع بعد كثير من البحث والمراجعة والاطلاع على شئون المجتمع في ان يكتب كتابه في الدعوة الى تحرير المراة ولكن كتابا ثلاثة عاصروا قاسم امين كشفوا عن حقيقة تختلف عن ذلك تماما وتشهد بان قاسم امين انما قد اضطر الى هذا العمل اضطرارا وان الظروف قد ساقته الى ذلك في ظل تحد كبير .

والثلاثة الذين نستشهد بهم في ذلك جديرون بالتقدير فهم داود بركات رئيس تحرير الاهرام ، وفارس نمر رئيس تحرير المقطم . والسيدة هدى شعراوي داعية النهضة النسوية .

ونورد هنا النصوص حسبما وردت في مصادرها الذي كشف عنها البحث . فقد كتب داود بركات (الاهرام — ٤ مايو ١٩٢٨) يقول ان قاسم امين حين قرأ كتاب الدوق راكور « المصريون » وقد تضمن هجوما على المصريين — رد عليه بكتاب باللغة الفرنسية وفند اتهاماته . فلما ظهر هذا الكتاب وصف بانه لم يكن في صف النهضة النسائية فقد رفع من شأن الحجاب وعده دليلا على كمال المراة . كما ندد بالدعايات الى السفور . وقد رأت فيه الاميرة نازلي فاضل تعريضا بها . وقد اشير على جريدة المقطم ان تكتب ستة مقالات عنه تفند اخطاء قاسم في هذا الاتجاه . ودفاعه عن الحجاب واستنكاره اختلاط الجنسين ثم اوقفت الحملة بعد اتفاق الشيخ محمد عبده وسعد زغلول مع قاسم على تصحيح رأيه . وقد حمل الشيخ محمد عبده الدعوة الى تحرير المراة في دروسه في الرواق العباسي حين اعلن مرارا ان الرجل والمراة متساويان عند الله .

وقد ترددت اراء كثيرة بان الشيخ محمد عبده كتب بعض فصول هذا الكتاب او كان له دور في مراجعتها ، ومما اورده لطفي السيد انه اجتمع في جنيف عام ١٨٩٧ بالشيخ عبده وقاسم امين وسعد زغلول وان قاسم اخذ يتلو على الشيخ فقرات من كتاب تحرير المراة وصفت بانها تنم عن اسلوب الشيخ محمد عبده نفسه .

اما فارس نمر فقد اشار في مقال له بمجلة الحديث (عام ١٩٣٩) الى هذا الحادث فقال « انه ظهر كتاب للدوق داركير يطعن فيه على المصريين طعنا مرا ويخص النساء باكبر قسط منه اذ رماهن بالجهل وضعف مكانتهن في المجتمع فاهتاج الشباب وتطوع قاسم امين للرد على كتابه . »

هنا اشير لحقيقة لا يكاد يعلمها الا ندرة في مصر ، هذه الحقيقة ان كتاب قاسم امين الذي رد فيه على دوق داركير لم يكن في صف النهضة النسائية التي كانت تمثلها الاميرة نازلي بل كان الكتاب يتناول الرد على مطاعن المؤلف الفرنسي ويرفع من شأن الحجاب ويعده دليلا على كمال المراة . ويندد بالدعايات الى السفور واشتراك المراة في الاعمال العامة .

ولما ظهر كتابه ساء ما به اخوانه امثال محمد المويلحي ومحمد بيرم وسعد زغلول وراوا فيه تعريضا جارحا بالاميرة نازلي وتشاوروا فيما بينهم في الرد واتفقوا اخيرا ان اتولى الكتابة عن هذا المؤلف وعرض فصوله وانتقاد ما جاء بها خاصا بالمراة . وبدات في كتابة سلسلة مقالات عنه ولكن ذلك النقد لم يرق قضاة محكمة الاستئناف ، وراوا فيه مساسا بهيبتهم ، ان قاسم افندي كان احدهم،

وراوا ان افضل وسيلة يبذلونها لكي اكف عن الكتابة ان مؤلفه يرجو الاميرة نازلي فاضل لكي تطلب الي ذلك . وتطوع الشيخ عبده للقيام بهذه المهمة .

وذات مساء حضرت الى صالون الاميرة كما حضر الشيخ محمد عبده ومحمد بيرم والمويلحي . وبعد قليل تحدث الشيخ عبده في هذا الشأن مع الاميرة فالتفتت الي سموها وقالت لي ، انها لا تجد بأسا في ان اكف عن الكتابة في الموضوع . وكانت هي لم تقرأ الكتاب ولم تعرف انه يشمل الطعن فيما تدعو اليه .

فلما رأى ذلك محمد المويلحي قال لسموها انه يدهش من طلب الاميرة وخاصة لان الكتاب تعرض لها . فبدت الدهشة عليها وكانت احدى نسخ الكتاب موجودة عندها. وعبثا حاولت ان اقفل باب الحديث في هذا الشأن ، وخاصة بعد ان لمحت عليها معالم الاضطراب والجد والعنف . فلما اطلعت على ما جاء به ثارت ثورة شديدة ووجهت القول بعنف الى الشيخ عبده لانه توسط في الموضوع .

ومرت الايام بعد ذلك واتفق محمد عبده وسعد زغلول والمويلحي وغيرهم ، على ان يتقدم قاسم امين بالاعتذار الى سمو الاميرة فقبلت اعتذاره ثم اخذ يتردد على صالونها وكلما مرت الايام ازدادت في عينه وارتفع مقامها لديه . واذا به يضع كتابه الاول عن المراة الذي كان الفضل فيه للاميرة نازلي والذي اقام الدنيا واقعدها بعد ان كان اكثر الناس دعوة الى الحجاب .

واشارت هدى شعراوي في محاضرة لها الى هذا السر الذي ظل خافيا زمنا طويلا . ولم يكشف الا بعد وفاة قاسم امين باكثر من عشرين سنة كان قاسم خلالها موضع الخلاف والصراع بين طائفتين من المثقفين : المحافظين والمجددين . ولم يكن قاسم امين سابقا للباحثين في الشرق فقد دعا من قبله بطرس البستاني ورفاعة الطهطاوي وعلي مبارك الى تعليم المراة وسفورها .

ولكن الذي يلفت النظر هو ان يناقض قاسم رأيه في ظلال سنوات قليلة ، فبعد ان كان يشيد بالحجاب يعود فيدعو الى نقيضه تحت ضغط ظروف مفروضة ، لم تقم على الاقتناع او الايمان بالراي ، وهو من اجل ذلك يحتمل كثيرا من المتاعب . فيقع في خصومة القصر والعلماء والصحافة الوطنية التي كانت تخاصم كرومر وانصاره ويواجه حملات متعددة ثم يصمد للخصومة ويحتمل ويرد على كل ما وجه اليه في كتاب اخر اصدره بعد عامين او اكثر هو « المراة الجديدة » .

هل غير قاسم رأيه

وسر اخر هو مدعاة للغرابة والبحث ، ذلك ما نشرته صحيفة الظاهر في اواخر ايام قاسم من محاولة للتنصل من ارائه ورجوع عنها واعلان بانه كان مخطئا في «توقيت» الدعوة الى تحرير المراة فقد رأى ان المصريين لا يقدرون حرية المراة كل التقدير .

هذا التصريح نشرته جريدة الظاهر التي كان يصدرها محمد ابو شادي في اكتوبر ١٩٠٦ يقول :

« لقد كنت ادعو المصريين قبل الان الى اقتفاء اثر الترك بل الافرنج في تحرير نسائهم وغاليت في هذا المعنى حتى دعوتهم الى تمزيق ذلك الحجاب والى اشراك النساء في كل اعمالهم ومآدبهم وولائمهم ، ولكني ادركت الان خطر هذه الدعوة بما اختبرته من اخلاق الناس فلقد تتبعت خطوات النساء في كثير من احياء العاصمة والاسكندرية لاعرف درجة احترام الناس لهن وماذا يكون شأنهم معهن اذا خرجن حاسرات فرأيت من فساد اخلاق الرجال بكل اسف ما حمدت الله على ما خذل من دعوتي واستنفر الناس الى معارضتي . رأيتهم ما مرت بهم امراة او فتاة الا تطاولوا اليها بألسنة البذاء ثم ما وجدت زحاما في طريق فمرت به امراة الا تناولتها الايدي والالسن جميعا . انه قد تصح الدعوة في الاستانة لتحرير المراة التركية تمام التحرير مثل نساء الافرنج لان الاداب العامة راقية جدا في دار الخلافة ولكن لا تجوز الدعوة من هذا القبيل في مصر . ولهذا كله لا اجد الوقت مناسبا للدعوة الى تحرير المراة بالمعنى الذي قصدته من قبل ... »

ومعنى كلام قاسم امين هذا الذي نشره قبل وفاته بعام ونصف عام — ان صح — وقد نقلته من الجريدة فعلا — ان قاسم قد اكتشف بعد سبع سنوات من دعوته انها لم تكن قائمة على اسسها الصحيحة في علم الاجتماع وهي الدعوة الى تربية الذوق والخلق والثقافة في الرجل والتمهيد الصحيح لها نفسيا واجتماعيا حتى يمكن تقبلها.

او ان قاسم امين رأى بعد ان تغيرت الظروف بزوال كرومر ووفاة محمد عبده وانطفاء نفوذ نازلي فاضل ان يتخفف من هذا الراي الذي اضطر اليه . وربما يتناقض راي قاسم هذا مما نشر يوم وفاته من انه كان حتى ليلته الاخيرة يستقبل وفود الفتيات ويتحدث اليهن .

القاهرة — انور الجندي



رحيل

مددت لـه في ذهـول يمينـي ... وقـد لفنـي عالـم مـن سكون
ودمعـة وجـد عـلى وجنتـيَّ ... تترجـم سر الهـوى والحنين

وددت لو انـي قلـت الوداعـا ... حسبت فـؤادي جريئـا شجاعا
فلم أستطـع غـير سكب الدموع ... وفـي الصـدر نار تئـن التياعا

فماذا عليك لو انـك قلبـي ... شرحت هـواك قبيـل البعـاد
أذبـت شعـورك فـي دمعتين ... فكانت دموعـي حديث الفؤاد

ومـاذا عليـك حبيـب الفؤاد ... لـو انـك قلـت وداعـا لقلبـي
ولكـن سكتّ وعيناك قالت ... اليك شعوري وقلبـي وحبي

مـددت لـه راحتـيَّ فـي تراخ ... فلـف يمينـي بكلتـا اليدين
يود لو انـي بقيـت طويـلا ... ومـا قـال شيئا سـوى آهتين

وفـي لوعتـين مـضى ومضيت ... وطـي الفـؤاد جـوى مستعر
مضيـت وخلفت قلبـي ورائي ... الى ان أعـود وان استقـر

تركت لـه ذكريـات جميلـه ... سيذكرهـا فـي الليالي الطويله
وينشد مـن وحيها الاغنيات ... ترددهـا الطـير فوق الخميله

مـضى وتركـت لـه قصـة ... سيقرؤهـا فـي ليـالي السهر
بها ما بها مـن حديـث الشجون ... ونبـض القلـوب وهمس الوتر

مصر الجديدة

روحية القليني

اصوات بعيدة تصل الى قرارة نفسه فيرتجف ، وتبدأ يده في حركة لا مبالية تتناول لفافة اثر اخرى .. فينفث دخانها من اعماقه ، ويتبع الدخان حسرة عميقة مضنية .

اعقاب اللفائف تركد في موت في قعر صحن نحاسي يلمع بكآبة بطيئة .. والاعقاب تؤلف بمجموعها جيشا من الاقزام تحتشد لتبدو في النهاية كتلة متراصة من نفايات تخلفها الحياة بعد معركة ينتصر فيها الموت اخيرا.

صحيفة كبيرة ذات عناوين ضخمة كتبت باللون الاحمر تحتل المقعد الخالي بجانبه .. بينما الطاولة الصغيرة امامه يشغلها الصحن النحاسي محتويا الاقزام المطفأة .. وفمه الذي اصبح مقبرة للدخان ، ينفرج عن كلمات لا يدرك لها اي معنى .. حتى الكلمة اصبحت فوق لسانه وكأنها قطعة من التبن الجاف .. يابسة ميتة، ولكنها سريعة الاحتراق شديدة اللهب .

عاد والقى نظرة سريعةعلى الصحيفة بجانبه .. كان قد فرغ منذ لحظات من قراءة مقال لم يع منه غير فكرة انتصار الانسان على نفسه ، وهي فكرة غير موجودة في كل ما قرأ ، ولكنه لا يدري لماذا سيطرت عليه وشدته من قعره الى عالم اخر .

ربما القصة ترجع الى عهد بعيد جدا .. ولكنه مع ذلك ، يرغب في ان يسترجع تلك الاحداث التي نبهته الى مكان وجوده في العالم .

كان يحلم وهو طفل صغير بأن يسير متنقلا من مكان لمكان بين ارجاء العالم حاملا جواز سفر كتب عليه بالخط الواضح الكبير: «الجنسية ــ انسان».

واراد ان يمارس انسانيته بأجل معانيها وابهج صورها .. ولكنها لم تكن لتتمثل لديه الا في احلامه ، فقد صعب على الحقيقة الصغرى حقيقة كبرى حدودها امل مشرق نسجت خيوطه الذهبية فوق ثرى ارضه المقدسة الطاهرة مع مطلع كل شمس.

* * *

عاد والقى نظرة جديدة على الصحيفة بجانبه ، على ذلك العالم الكبير ، فاختلطت امام عينيه اكثر من حقيقة واحدة .. وساقته الايام بعيدا الى الوراء ، وراح يتذكر الف حادثة وحادثة .

ووجد منتهى اللذة والسعادة وهو يمر بأيامه الخالية الماضية .. وتمنى ولو للحظات ان يعود طفلا لا يهمه من امر الوجود شيئا .

ذكريات بعيدة لذيذة مرت امام خاطره بنشوة مخدرة .. ولم يملك ازاءها الا ان يتحسر على ما مضى من ايام الحداثة الاولى .

حدق في الصحن النحاسي، وتأمل اقزام اللفائف .. كان كل قزم منها

الندب الخفية

بقلم عدنان الداعوق

يصور حياة بأكملها .. حياة مليئة بالصخب، حافلة بشتى الوان الدخان.

الدخان . راح يمضغ هذه الكلمة في فمه ويحس بمرارتها والمها . البيت يشتعل بالدخان .. والنار تأكل كل شيء فيه .. واشباح لولبية الشكل ترقص على انغام النار رقصة هدامة ليس فيها اي معنى للسلم ..

كان خارج المنزل عندما عاد تلك الامسية واخترقت انفاسه رائحة الحريق .

حريق هائل ، ظنه بادىء الامر آتيا من مكان بعيد .. ولما اقترب من المنزل ، وجد الناس يتزاحمون امامه ويصرخون .



حتى تلك اللحظة لم يكن متأكدا من ان النار تأكل بيته ، فاندفع مع المندفعين داخل المنزل واستعصى عليه الدخول ، فقد كانت النار تقف عملاقة في وجهه وتتحدى كل شيء.

لم يعد يستطيع ان يملك نفسه آنذاك بعد ان سمع صراخ اخيه الصغير يبكي بصوت يأتيه مصحوبا بصوت النار وهي ترقص في المنزل .

سأل من حوله بجنون :

ــ وامي .. هل رآها احد ؟

فأجابه رجل عجوز اتسخت يداه ووجهه وهو يحاول ان ينقذ ما يستطيع من اثاث المنزل :

ــ كانت قد خرجت من المنزل بعد ان هبت فيه النار .. ولكنها عادت اليه ، وما زالت هناك ، بعد ان سمعت بكاء ابنها الاصغر .. تصور يا بني.. الحب يتحدى كل شيء .. حتى النار .

* * *

ــ ماذا تنتظرين مني ان افعل ..؟

قال عبارته هذه دون ان يدرك مدى ما تعني في نفسها .. وراح يمتص الانفاس الاخيرة من دخينته .

وغاب في غياهب مطلقه الواسع الفسيح .. وانطلق يسابق الغد والمجهول .

وتطلع اليها .. كانت تبتسم ، ولكنه استطاع ان يلمح دموعها من وراء ابتساماتها تتعلق على اهدابها كما يتعلق اجله فوق اوراق الخريف الصفراء .

وتعانقت نظرته بابتساماتها، ووجد في هذه الابتسامة املا بعودة الربيع من جديد ... فالحياة في دوران مستمر ، والفصول في تعاقب متلاحق .. وهو نفسه سيصير غيره غدا ، وهي نفسها ربما غدت فتاة اخرى فيلتقي المطلق بالخريف ، وتتوالد الايام وتنجب الابن البار لهذا الانسان المعذب .

ــ انني معذب يا رجاء ..

ومسحت دمعتها قبل ان تسقط من اهدابها ، وقالت له :

ـ أبحث عن نفسك، عن وجودك.. ربما تستطيع ان تجد شيئا . فقط عليك ان تحاول .

وقبل ان ينطق بكلمة اخرى، وجد نفسه يبتسم لها ابتسامة بلهاء لم يتمكن هو نفسه ان يفهم منها شيئا.. سوى انه يريد أن يبتسم .

وفجأة انفجر بضحكة هستيرية ، وهب من مقعده وانطلق الى النافذة.

كان المساء حرا . القمر يغسل قمم الاشجار على طول الطريق الذي ينفسح امام النافذه، وتكاد الدنيا كلها تذوب في بحر من فضة راقصة .

والتفت اليها ، وقابل وجهها بابتسامته البلهاء .. كانت ترتعش . ترتجف .. ومع ذلك لم تكن خائفة.

اقترب منها وحضن وجهها المشرق بكلتا راحتيه ، ومال وقبل جبينها.

احس ببرودة قارصة . كانت الارض كالثلج . لا نبات هناك ولا زرع .. الاشجار العارية مكسوة حتى قممها بالثلج، والطريق الطويل خال.. الاصوات نائمة والكائنات تعاني من الموت الطويل الكئيب .

البرودة تلفح وجهه، والثلج يتساقط بغزارة ويطمس كل معالم الحياة .. الوجود سيندفن تحت انقاض الهزيمة.. هزيمة الارض من الحرارة والشمس .

ليت الشمس تسطع من جديد .. سيذوب الثلج، سينكشف الطريق.. القمر يحتضر وراء السحب الباردة الجامدة .. الضوء الفضي يتأوه ، ولكن البرودة تميت كل نامة وكل صرخة ، فالوجود في البرد بلا شمس هلاك .

كل شيء سيندفن .. كل الحياة ستغدو بعد لحظات هشيما ، كما كانت في ذلك اليوم ، والفرق بين ذلك اليوم البعيد وبين الان كالفرق تماما بين النار والحريق ، وبين الصقيع والثلج .

وسقط عند حضن «رجاء» يبكي :

ـ هناك قضت على نفسها .. من اجل الحب ، ضحت بنفسها وارتمت في النار من أجل ابنها .. الحب يتحدى كل شيء . حتى النار . حتى الصقيع .. حتى الجليد .. حتى الثلج .

* * *

بعد ان مسحت له دموعه براحتيها الناعمتين ، نهضت وهي متثاقلة بخطاها ، وتوجهت الى باب المنزل وذهبت دون ان تلقي عليه نظرة اخيرة .

ظل في مكانه يابسا لا يتحرك ...

راح يتذكر الامس ، الامس البعيد، وحرقته مع الذكرى النار.. وتحسس يده ورقبته وساقه ، ولمس الندب الظاهرة والخفية التي خلفتها النار يوم رأى المنزل يحترق وسمع ان امه دخلت تدس نفسها بين النار من اجل ولدها الاصغر .

كان يريد ان يحترق .. يود لو يحترق كله من اجل ان تحيا روحه طاهرة نقية وقد تخلصت من جميع ادرانها التي خلفتها في اعماقه الحياة.

واحس اذ ذاك ببرودة وحرارة ملهبة في آن واحد مكان الندب التي خلفت وراءها اللحم المحترق .

وهز راسه طويلا .. تأرجح على حافة هاوية عميقة تفصل بين نار وصقيع ، وهو فوق سياج دقيق لا يدري أين مصيره .

وجد على المقعد الانيس الذي كان يحضن جسد « رجاء » الرائع وردة حمراء ومنديلا صغيرا طرزت حوافيه بحرف واحد ، كان حرف « س » .

وبين الذكرى والالم ، والنار والجليد .. والشمس والظلام .. وكل متناقضات الوجود ضحك وضحك حتى كاد يغمى عليه .

حرف « س » .. ؟

الم تكن «رجاء» على علاقة بشاب يعرفه .. ؟

كان اشقر الشعر ، كانه جاء من بلاد لم تلفحها الشمس .. طويلا كنخلة نبتت وحيدة فوق صحراء لم تعرف قافلة استظلت بظلها في يوم قائظ .

كانت تحبه .. اجل كان اسمه « سامي » .

سامي .. وضحك بينما كان يمزق بين انامله المجنونة ويبعثر الحرف المعبود عند « رجاء » وضجت الاصداء حوله.. المقعد الانيس يقول «سامي»، الصحف والمجلات امامه طمس منها كل الكلام وحل محله اسم «سامي».

سامي . سامي . سامي ...

وقرب الوردة الحمراء القانية من وجهه ، ومررها على صفحة خده .. مخمل من الخجل ظل صامتا لحظة احس انه قد تخلص من الصدى الاجوف الكبير .. غير ان الوردة ذبلت بين انامله ، وانطوت اوراقها على نفسها ، وانّت وهي تحتضر وتقول : « سامي . سامي » .

شمس مشرقة فوق ارض باردة..

قمر عاشق يقبل ذؤابات الشجر ..

ووجود فرحان يغسل نفسه بعصير الورد.

وانتصر .. انتصر على نفسه وهو يسحق الوردة الحمراء في كفه اليابسة، ويطمر في الصحن النحاسي امامه بقايا الوردة العاشقة .

* * *

واشعل دخينة اخرى .. ثم ما لبث ان اطفأها بجانب بقايا الوردة . تسمرت عيناه على تلك البقايا .. للمها بلهفة العاشق .. وحملها الى غرفة اخرى ، وفتح كتابا سميكا واودع البقايا الحمر فيه .

وعاد الى النافذة ..

فتح الزجاج واطل على الشارع . كان المنظر ما يزال هو نفسه يتكرر امامه . وسمع رجلا عجوزا من بعيد يقول :

ـ الحب يتحدى كل شيء .. حتى النار ..

وتحسس من جديد الندب الظاهرة والخفية من آثار الحروق .. احس بحرارة شديدة تمسه.. كانت النيران تشتعل فوق الجروح القديمة المتكمشة .

هتف بأعلى صوته يجيب الشيخ العجوز :

الـلـه

●

نبغي الدليل وعلة العلل ... ما قام في الاذهان من خطل
عور الدليل مردّه لهوى ... عثرت به الاقدام من زلل
لو صحّ في الاذهان منطقها ... لاستغنت الاذهان عن جدل
تلقى الحقيقة غير خافية ... عن مقلة برئت من الحول
لكنها الاطماع تصرفنا ... عن ساطع للحق كالشعل
سبحانك اللهم ما فتئت ... زلاّتنا وقفا على المقل
لولا دجى الاطماع لانكشفت ... اطباقها عن نيّر السبل

* * *

ما كانت الدنيا سوى مثل ... لحقيقة علوية المثل
قام الدليل على البديع بها ... في كل ما وسعت من العلل
في كل منعطف يشع سنا ... لحقيقة درجت من الازل
فالحجة الغراء ماثلة ... للعين ملء السهل والجبل
سطعت بفيض سنا مصفقة ... اعلامها عن ساطع الحلل
اوليس في الدنيا الدليل لمن ... رام الدليل وزاغ من خبل
ان لم يكن قلب يحسّ به ... لم تعصم العينان من زلل

* * *

(زحلٌ) يسبّح في مطالعه ... لعلاك في شغف كمبتهل
خفقت مصفقة ذوائبه ... بجناح طير دفّ من وجل
والبدر كالطغراء مرتسم ... في صفحة تخضل عن امل
او انه ثغر الزمان بدا ... يفترّ من بشر ومن جذل
ضلّت به الالباب حائرة ... في حالك كسوائم الابل
وجرت مشتّتة نوازعها ... نهب الرؤى كالشارب الثمل
رجعت مع الاملاق خائبة ... بمرارة الحرمان والفشل

* * *

والبحر يجأر غير متئد ... بدعائه في فحمة الاصل
غنّى بحمدك حين اعوزه ... فم معرب ليُبَين عن امل

ـ اجل . الحب يتحدى كل شيء .. حتى الصقيع .

وامسك بسكين صغير كانت ملقاة باهمال في درج الطاولة الصغيرة بجانبه .. وقربها من الجرح القديم في يده ، وطمر نصفها في مكان الجرح ، فاندفق الدم احمر كنافورة صغيرة . وابتسم وهو يغرز السكين مرة اخرى في مكان الحرق القديم في ساقه ..

وضحك عاليا وهو يغرزها مرة اخرى في رقبته ..

وسمع صوت « رجاء » وهي تقول له :

ـ حاول ان تجد نفسك ..

وحين كان يسبح في نافورات من دمائه المتدفقة من جروحه الجديدة ، كان يردد لنفسه بصوت لا يكاد يسمعه:

ـ الحب يتحدى كل شيء .. حتى الحياة .

حمص **عدنان الداعوق**

امواجه الاشواق ماخرة ... اثباجه في عارض هطل
عصفت مجلجلة غواربها ... في غارب كالليل منسدل
ريع الفؤاد ففضّ من فرق ... واشاح حين اشاح من وهل
سعة ترى فيها الخيال طوى ... جنحيه من نصب ومن ملل
وتزيغ عنه العين حاسرة ... اجفانها عَلا على نهل

* * *

والشمس آيتك التي سطعت ... آياتها بالحق من ازل
نطقت وما فغمت فما وشفت ... غلّلا ولم تنطق ولم تقل
عصفت غواربها بشوب لظى ... وجرت بمنهمر على عجل
اعلامها خفقت مصفقة ... في الافق ملء السهل والجبل
تاهت على زُحَلٍ وحق لها ... ان تزدهي عجبا على زحل
قسماتها نور ومن عجب ... ضل اللبيب بها كمختبل

* * *

والكون مرآة طلعت بها ... وجلوتها بالصقل عن خلل
زينتها بشواقب عجب ... من كل منتظم ومكتمل
فاذا السماء صحيفة سُطرت ... بروائع من كل منتخل
طهرت عن الآثام صفحتها ... من صارم عضب ومن اسل
ترقى بها الارواح سابحة ... بمسالك برئت عن الدخل
جاب (البراق) بها معارجها ... في غابر مع اكرم الرسل
والوحي منها سال غاربه ... وانهل بالحوذان والنفل

* * *

سويتَ حين قضيتَ عن قدر ... بين الورى بنوازع الاجل
وقهرت بالموت العباد فما ... حي نجا عن جائح العلل
لم ينج جبار ولا وكِل ... من ضربة خلصت عن الوكل
الناس ما عاشوا النيام فان ... ماتوا استفاق القلب من خبل
ومضى يجوب مسالكا خفيت ... ومدارجا دقت عن المقل
واتت اليك الروح ساعية ... بحنين مشتاق على عجل
الروح سر الله ندركها ... بالحدس لا بالحكم والجدل

* * *

ألجمت قلبي عن نوازعه ... لارد عنه نوازع العلل
وفطمته عن شهوة وهوى ... في كل مبترك ومرتحل
فبصرت بالقلب الكليل سنا ... لحقائق تنهل كالوشل
ولمحت في (سيناء) ما سطعت ... في غابر نار على الجبل
ووعيت كل حقيقة خفيت ... فيما مضى في الاعصر الاول

* * *

سبحانك اللهم ما فتئت ... زلاتنا وقفا على المقل
لولا دجى الاطماع لانكشفت ... اطباقها عن نيِّر السبل

دمشق

عدنان مردم بك

السرقة الادبية بين الشعر والنثر

بقلم ابو طالب زيان

* * *

لا اعلم ان كتبا في الادب بعينها ، عنيت بهذا اللون من الادب ، قدر عنايتها باظهار العيوب في القصيد ، والموازنة في المنظوم منذ نبع الشعر ، وفاض معينه الى وقتنا الحاضر .

ولعل العذر في هذا ان النقد الادبي جله ، كان متجها الى الشعر ودراسته ونقده ، والوقوف على اسرار ما يحدثه في النفوس من عواطف او انفعالات ، ومحاولة الاهتداء الى مظاهر الابداع ، والنفاذ الى سر ما حوى من جمال . اذ كان الشعر هو اللون الادبي الذي غلب على العـرب في جاهليتهم واسلامهم ، لهذا بقيت دولته محتفظة بسلطانها على فنون الادب في سائر العصور حتى في تلك الفترات التي اعتور فيها العروبة شيء من الضعف والانحلال ، كان للشعر شأن لا يجحده المتتبعون لحياتـه ، والراصـدون لحركات تطوره من عصر الى عصر في كنف شاعر ، او بناء قصيد في ظل تلك الاهتزازات التي اخذت الشعر من كل جانب .

وفي ذلك يقول لاسل ابركرمبي في كتابه : « قواعد النقد الادبي » عن لغة الشعر : انها اللغة التي يستطيع بها المؤلف ان يوصل تجاربه الخاصة بمنتهى القوة النافذة ، وبغاية الدقة والوضوح مع تصوير دقيق للتفاصيل الخفية، فهي اللغة في اسمى منازلها وفي كامل قوتها . ومن المسلم به انه في كثير من الاحيان متى اريد التعبير بكل دقة عن كل جزء من التجارب التي تعتري الكاتب ، فقد يضطر الى الاستعانة بالوزن ، ولكن هذا الوزن ليس هو الشيء الاساسي في لغة الشعر .

ويخلص كرمبي : الى ان كلمة الشعر قد تطلق على الادب عامة : فالشعر هو خلاصة الادب ، وفيه مرامـي الادب كلها ، وهي التعبير عن المرامي المحصنـة بالالفاظ مركزة الى أقصى درجات التركيز ، وما يصدق على الشعر ، يصدق على الادب بعامة . على ان هذا يفسر لنا الى حد كبير ، غلبة الكلام في الشعر عند العرب وعند غيرهم ، حتى تجاوزت تلك العناية نقاد الادب الى علماء البلاغة الذيـن جعلوا السرقات الشعرية موضوعا من موضوعات البلاغة ، متأثرين بالاراء التي تعده عملا فنيا لا غنى للاديب عنه : شاعرا كان أم ناثرا ، وان سموه في اكثر الاحيان : سرقـة وغصبا وانتهابا . لكننا مع هذا يمكن ان نقرر بكل اطمئنان، ان الاخذ او السرقة او التقليد أو الاتباع موجود في فنون النثر جميعا ، وان كانت الدراسات لم تتناوله ، وتعرضت لغيره ، وهو الشعر، لشيوع الاغراض فيه، وكثرة محاكاته، وسهولة تناقله على ألسنة الرواة ، وحداء البادية قبل الحاضرة فيه ، على ان القرن الثالث الهجري يحمـل في طياته ، فنا من فنون النثر شاعت فيه السرقة ، وكثر فيه التقليد او الاتباع ، وهو فن المقامات .

ولقد حدثنا التاريخ ، ان نواة هذا الفن ، كانت نحو اربعين حديثا ، صورّ ابن دريد فيها ما كان يجري في المجالس . ويذهب كثير من الباحثين في الادب العربي ، الى ان احاديث ابن دريد حاكاها بديع الزمـان الهمذاني بأسلوب اخر ، فكانت مقاماته حكايات او قصصا قصيرة ، انتزعها بديع الزمان من الحوادث التي وقعت له او شاهدها في اثناء رحلاته الكثيرة في بلاد خراسان وما جاورهـا وكتبها في نيسابور بعد ان عاشر كثيرا من الناس ، وخالط العامة والخاصة هناك . ويظهر ان التسول كـان ذائعا وكانت حيل المتسولين معروفة وكان كثير من الادباء على هذه الحال ، فكتب مقاماته يصف فيها حالة هؤلاء ، وعزاها الى رجل سماه : أبا الفتح الاسكندراني ، ونسب روايتها الى رجل اخر سماه : عيسى بن هشام .

وموضوع هذه المقامات : ان رجلا شحاذا اديبا هو ابو الفتح الاسكندراني ، كان يجول في البلاد ، ويتفنن في اساليب الاحتيال للحصول على المال . وكل مقاماتـه لا تخرج عن هذا الغرض ، غير انها تمتاز من ناحية الاسلوب بأنها تتكون من عبارات مسجوعة ، قصيرة الفقرات ، فيها كثير من الحسنات البديعيـة والاستعارات والمجازات ، والالفاظ اللغوية التي تدل على التبحر وسعة الاطلاع .

والواقع ان مقامات البديع في غرضهـا وموضوعها واسلوبها ، هي بعينها مقامات الحريري . فقد نسج القاسم بن علي الحريري على نسق الهمذاني في مقاماته : جعل ابا زيد السروجي الذي عزا اليه مقاماتـه مثـل ابـي الفتح الاسكندراني ، رجلا اديبا محتالا ، واخـذ اوصافه من اوصاف ذلك الرجل ، وكانت موضوعاته في مقاماته اشبه بموضوعات مقامات البديع ، لان الحريري وصف ابا زيد السروجي بأنه فقير محتال يستعمل ذكاءه وقوة بيانه في استعطاف الناس واستدرار اموالهم ، كما وصفه بأنـه شاعر بليغ وخطيب مفوه ، وشحاذ ملح فـي السؤال ، امتلأت نفسه بالاحتيال على الناس يتنقل مـن مكان الى مكان ، ويرحل من بلد الى بلد ، وقد اتخذ ذلك حرفة له .

وكل مقاماته وصف لنفس ذلك الرجل ، او صور لبعض الناس ولا سيما الادباء منهم وبيـان لما هـو كامن في نفوسهم من اطماع وحيل ، واستعمال ما وهبوا من فصاحة وبلاغة في ذلك . . .

وقد اطنب الحريري في ذكر صفات ابي زيد السروجي، كما اطنب الهمذاني في صفات ابي الفتح الاسكندراني ، وكما جعل البديع عيسى بن هشام راوية لمقاماته ، جعـل

الحريري الحارث بن همام راوية كذلك لمقاماته .

على ان هذا يدل دلالة واضحة ، على ان مقامات الحريري محتذاة نسق مقامات البديع في كل شيء : في الرواية والبطل والغرض والموضوع والاسلوب ، او بعبارة اصرح على فقدان الشخصية الادبية فقدانا تاما ، وان الضعف الذي سيطر على شخصية الحريري هو الذي اودى بمعرفة الرجل العلمية والادبية التي نلمسها في ثنايا مقاماته ، والتي كان من الممكن ان نجد لها متنفسا اخر في واد اخر تظهر فيه تلك الموهبة الشخصية بطابعها المستقل، وسماتها الواضحة الممتازة .

بيد ان الحريري نفسه ، يعترف بالاخذ والاحتذاء صراحة في مقدمة مقاماته . « انه قد جرى ببعض اندية الادب الذي ركدت في هذا العصر ريحه ، وخبت مصابيحه، ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان ، وعلامة همذان ، رحمه الله تعالى ، وعزا الى ابي الفتح الاسكندري نشاتها ، والى عيسى بن هشام روايتها ، وكلاهما مجهول لا يعرف، ونكرة لا تتعرف ، فأشار من اشارته حكم ، وطاعة غنم ، الى ان انشيء مقامات اتلو فيها تلو البديع ، وان لم يدرك الظالع شأو الضليع . فلما لم يسعف بالاقالة ، ولا اعفى من المقالة ، لبيت دعوته تلبية المطيع ، وبذلت في مطاوعته جهد المستطيع ، وانشأت على ما اعانيه من قريحة جامدة ، وفطنة خامدة ، وروية ناضبة ، وهموم ناصبة ، خمسين مقامة ، تحتوي على جد القول وهزله . »

والدكتور بدوي طبانه ، يفضي بحقيقة واقعة هي : « ان مقامات الحريري صورة مائلة لمقامات البديع ، لا تزيد عنها في شيء ، اللهم الا في ذلك الاسراف المنقطع في الصناعة اللفظية ، وفي ذلك الاكثار من فنون البديع ، ولا سيما التورية والجناس والسجع والازدواج ، حتى عناوين المقامات لم تخل من سرقة وغصب ، فان بعض العناوين مشترك بينهما ، كالمقامة البغدادية والمقامة الساسانية والمقامة الكوفية والمقامة البصرية . ويقال ان الحريري شهد تلك البلاد او الم بها ، او يقال ان الخيال ، وهو عماد الادب ، وعماد القصص ، هو الذي اوحى بتلك وتلك الاسماء ، وان ذلك الخيال هو الذي تنقل بين تلك الارجاء ، وذلك عذر قد يكون مقبولا ، وقد يكون وجيها ، لولا ان تنقل الحريري كان في بلاد ذكرها التاريخ ، أما الخيال فانه خيال مسروق ، وسرقة الخيال الخاص من اشنع ضروب السرقة . »

ولقد اتى الدكتور بدوي بدليل موضوعي من احدى المقامات التي شارك فيها الحريري امامه بديع الزمان قال :

حدثنا عيسى بن هشام قال :

« كنت وانا فتى السن اشد رحلي لكل عماية ، واركض طرفي الى كل غواية ، حتى شربت من العمر سائغة ، ولبست من الدهر سابغة ، فلما انصاح النهار بجانب ليلي، وطئت ظهر المروضة ، لاداء المفروضة ، وصحبني في الطريق رفيق لم انكره من سوء ، فلما تجالينا وخبرناه بحالينا سفرت القصة عن اصل كوفي ، ومذهب صوفي ، وسرنا فلما احلتنا الكوفة ملنا الى داره ، ودخلناها وقد بتل وجه النهار ، واخضر جانبه ، ولما اغتمض جفن الليل وطر شاربه ، قرع علينا الباب ، فقلنا : من القارع المنتاب ؟ فقال وفد الليل وبريده ، وفل الجوع وطريده ، وحر قاده الضر ، والزمن المر . وضيف وطؤه خفيف ، وضالته رغيف، وجار يستعدي على الجوع ، والجيب المرقوع ، وغريب اوقدت النار على سفره ، ونبح العواء على اثره ، ونبذت خلفه الحصيات ، وكنست بعده العرصات ، فنضوه طليح، وعيشه تبريح ، ومن دون فرخيه مهامه فيح .

قال عيسى بن هشام :

فقبضت من كيسي قبضة الليث ، وبعثتها اليه ، وقلت: زدنا سؤالا نزدك نوالا . فقال : ما عرض عرف العود ، على احر من نار الجود ، ولا لقي وفد البر ، باحسن من بريد الشكر ، ومن ملك الفضل فليؤاس ، فلن يذهب العرف بين الله والناس . واما انت فحقق الله امالك ، وجعل اليد العليا لك !

قال عيسى بن هشام : ففتحنا له الباب . وقلنا : ادخل، فاذا هو والله شيخنا ابو الفتح الاسكندري ! فقلت : يا أبا الفتح ، شد ما بلغت منك الخصاصة وهذا الزي خاصة، فتبسم وانشأ يقول :

لا يغرنك الذي	انا فيه من الطلب
انا في ثروة تشق	لهنا بردة الطلب
انا لو شئت لاتخذ	ت سقوفا من ذهب

ثم نجد في المقامة الكوفية .

حكى الحارث بن همام قال :

« سمرت بالكوفة في ليلة اديمها ذو لونين ، وقمرها كتعويذ من لجين ، مع رفقة غذوا بلبان البيان ، وسحبوا على سحبان ذيل النسيان ، ما فيهم الا من يحفظ عنه ، ولا يتحفظ منه ، ويميل الرفق اليه ، ولا يميل عنه ، فاستهوانا السمر ، الى ان غرب القمر ، وغلب السهر ، فلما روق الليل البهيم ، ولم يبق الا التهويم ، سمعنا من انباب نبأة مستنبح ، ثم تلتها صكة مستفتح ، فقلنا من الملم ، في الليل المدلهم ؟ فقال :

يا اهل ذا المغنى وقيتم سرا	ولا لقيتم ما بقيتم ضرا
قد دفع الليل الذي اكفهرا	الى ذراكم شعثا مغبرا
اخا سفار طال واسبطرا	حتى انثنى محقوقفا مصفرا
مثل هلال الافق حين افترا	وقد عرا فناءكم معترا
وامكم دون الانام طرا	يبغي قرى منكم ومستقرا
فدونكم ضيفا قنوعا حرا	يرضى بما احلولى وما امرا

وينثنى عنكم ينث البرا

قال الحارث بن همام : فلما خلبنا بعذوبة نطقه ، وعلمنا ما وراء برقه ، ابتدرنا فتح الباب ، وتلقيناه بالترحاب ، وقلنا للغلام : هيا هيا ، وهلم ما تهيا ، فقال الضيف : والذي احلني ذراكم، لا تلمظت بقراكم، او تضمنوا لي الا تتخذوني

بين لبنان المقيم ولبنان المغترب

النداء

ايها الغائب المعنّى المشرد ... عد الينا فانما العود أحمد
زال عهد الظلام والظلم ولّى ... وانار الحمى « شهاب » وفرقد
ضاع منك الشباب بين رحيل ... واغتراب ، وانت تشقى وتجهد
عد الى الغمد بعد طول جهاد ... يصلت السيف للوغى ثم يغمد
عد الى الروض نوّر الزهر فيه ... وتغنى الحسون فيه وغرّد
لك في الربع اخوة ومقر ... في قلوب ، وارث مجد مخلد
طال شوق الحمى للقياك حيًا ... لا رميما في ترب لبنان يلحد

العتاب

أيها الاخوة المحبون مهلا ... هل لعنز لنا بلبنان مرقد (1)
بعتم الاجنبي سهلا وجردا ... لم يعد للبنين في الارز مذود
وحجبتم عن المهاجر ارثا ... صانه جده بحد المهنّد
ويح حال الغريب اصبح طيرا ... ان يرد وردكم عن الماء يطرد

كلا ، ولا تجشموا لاجلي أكلا ، فرب أكلة هاضت الاكل . وحرمته مأكل ، وشر الاضياف من سام التكليف ، وآذى المضيف ، خصوصا أذى يتعلق بالاجسام ، ويفضي الى الاسقام وما قيل في المثل الذي سار سائره ، خير العشاء سؤافره ، الا ليعجل التعشي ، ويجتنب اكل الليل الذي يعشي ، اللهم الا ان تقد نار الجوع ، وتحول دون الهجوع.

قال : فكأنه اطلع على اردتنا ، فرمى عن قوس عقيدتنا ، لا جرم انا انسناه بالتزام الشرط ، واثنينا على خلقه السبط ، ولما احضر الغلام ما راج ، واذكى بيننا السراج . تأملته فاذا هو ابو زيد ، فقلت لصحبي : لهنكم الضيف الوارد ، بل المغتم البارد ، فان يكن افل قمر الشعرى ، فقد طلع قمر الشعر ، واستسر بدر النثرة ، فقد تبلج بدر النثر . فسرت حميا المسرة فيهم ، وطارت السنة عن مآقيهم ، ورفضوا الدعة التي كانوا نووها ، وثابوا الى نشر الفكاهة بعدما طووها ، وابو زيد مكب على اعمال يديه ، حتى اذا استرفع ما لديه ، قلنا اطرفنا بغريبة من غرائب أسمارك ، او عجيبة من عجائب اسفارك ! فقال : لقد بلوت من العجائب ما لم يره الراءون ، ولا رواه الراوون ، وان من اعجبها ما عاينته الليلة قبيل انتيابكم ، ومصيري الى بابكم ... وقال : انهض بنا لنقبض الصلات ، ونستنهض الاحالات ، فقد استطارت صدوع كبدي ، من الحنين الى ولدي ، فوصلت جناحه حتى سنيت نجاحه ، فحين احرز العين في صرته ، برقت اسارير مسرته ، وقال لي : جزيت خيرا عن خطا قدميك ، والله خليفتي عليك ، فقلت اريد ان اتبعك لاشاهد ولدك النجيب واناقشه لكي يجيب ، فنظر اني نظرة الخادع الى المخدوع ، وضحك حتى تفرغرت مقلتاه بالدموع ، وانشد :

يا من تظن السراب ماء ... لما رويت الذي رويت
ما خلت ان يستسر مكري ... وان يخيل الذي عنيت
والله ما بره بعرسي ... ولا لي ابن به اكتنيت
وانما لي فنون سحر ... ابدعت فيها وما اقتديت
لم يحكها الاصمعي فيما ... حكى ولا حاكها الكميت
تخذتها وصلة الى ما ... تجنيه كفي متى استهيت
ولو تعافيتها لحالت ... حالي ولم احو ما حويت
فمهد العذر ، او فسامح ... ان كنت اجرمت او جنيت

ثم انه ودعني ومضى ، واودع قلبي الغضا » .

على ان المتتبع لكل هذه النصوص وتطائرها واشباهها ، يجدها كلها مبنية على السرقة او الاتباع . وصاحب اليد الطولى فيها ، هو : بديع الزمان .

والى هنا اكتفي ، على ان اواصل البحث في السرقات الادبية ، زمنا بعد زمن ، مبينا الاصل والفرع ، او الآخذ والمعطي ، اذ لكليهما الفضل كل الفضل ، في النفع العام ، والفائدة المرجوة للادب والبيان .

القاهرة ... أبو طالب زيان

ظلل الارز في الربى كل غاد   وخليع عن اهله ومشرَّد
وقرى السهل جائعا مستغيثا   وسقى النهر كل صاد وأورد
ترضع الام طفلها ثم تسقي   ما تبقَّى من درها للمولَّد
نعم الخائفون بالامن فيه   وفتاكم في وحشة الخوف مبعد
كن بلبنان أجنبيا فهذي   خير حال بها تسود وتسعد

* * *

اي كاس من الضنى لم يذقها   في سراه ما بين نجد وفدفد
ذاق ذل الغريب من بعد عز   واسى البائس الاسير المصفَّد
يحمل العبء والهموم ويسعى   بين جفنين دامع فمسهَّد
عضَّ سير الجلود في منكبيه   عضة الغل للبعير المقيَّد
يسهر الليل واجفا يتردَّى   برداء من الدياجير أسود
يأكل الصيد او يجوع فيطوى   يشرب الطين كالزلال المبرَّد (٢)

* * *

ان داء الجسوم يشفي ولكن   هل شفاء لداء نفس تجسَّد
حسرة بعد حسرة ضاع فيها   امل عاثر وعيش منكَّد
وحنين يزجو الحنين كنار   تبعث النار ، في الحشا يتوقَّد
ان ذكرنا الشباب عادت الينا   ذكريات عزيزة تتجدَّد
ذكر أم ووالد وشقيق   وصديق وذكر دار ومعبد
ان تهبَّ الصبا حنونا اليها   انها ريحنا من الشرق تصعد
كم عيون تطلعت وقلوب   نحو لبنان من مشوق تسهد

* * *

غير أنَّا من الديار حملنا   عزمة الطود من حديد وجلمد
وحملنا الصعاب حتى بلغنا   قمَّة «الاند» والمحيط المجمَّد (٣)
ونقلنا حضارة الشرق للغر   ب قديما ودين عيسى واحمد
ونقلنا مطابع الغرب للشر   ق حديثا «ودير قاديش» يشهد
واخترعنا حكَّ السفينة هديا   وحروف الهجاء هوَّز أبجد (٤)
واذعنا النفيس من ادب العر   ب دفينا في الرق او في المجلَّد
ونظمنا الشعر الرصين فغنَّى   بلبل الغرب من شجاه وانشد
وسكنَّا الاخلاق لمَّا فقدنا   منزلا في الحمى نبا وتشرد
ليس في نبتنا فساد ولا في   دوحنا حشرة وغصن مأود
قد عصرنا الجسوم حتى بعثنا   لكم المال من طريف متلَّد
غير ان الديار ضاقت وضنَّت   فحننا الى الطراف الممدَّد (٥)

* * *

لج بالنازح القريب بلاء   فبكا شجوه دما وتنهَّد
وتداوى بشعره كجريح الـ   طير اخفى انينه ثم صعَّد
ضجَّ لبنان تربه وبنوه   ضاق ذرعا بوافد ومبلَّد
ان هذا الفتى المهاجر اولى   برغيف من وافد ومشرَّد

القاهرة   **بولس غانم**

---

(١) اشارة الى المثل اللبناني الذي تردده العامة «نيَّال من لو مرقد عنزه في جبل لبنان».
(٢) راجع قصيدة الشاعر المهجري ، الياس فرحات حيث يقول : ونشرب مما تشرب الخيل تارة وطورا تعاف الخيل ما نحن نشرب . (٣) الاند : سلسلة جبال تعلو غرب أمريكا الجنوبية . (٤) حك السفينة : الابرة التي يهتدي بها الملاح . (٥) اشارة الى قول طرفة بن العبد : رأيت بني غبراء لا ينكرونني ولا اهل هاذاك الطراف الممدد والطراف هو البيت من أدم .



REGINA AGUESINI

الشاعرة الايطالية : ريجينا آنيزيني

بقلم عيسى الناعوري

* * *

حمل الي البريد في الايام الاخيرة مجموعة شعرية صغيرة، للشاعرة الايطالية الشابة الانسة ريجينا آنيزيني تحتوي على اربع وعشرين مقطوعة ، بين قصيرة وطويلة ، ومقدمة لصديقي الشاعر الكبير سلفاتوره كوازيمودو ، الذي سبق ان فاز بجائزة نوبل عام ١٩٥٩ . وعنوان هذه المجموعة « المدينة الخامدة » La Città Atonale

والشاعرة آنيزيني مولودة في مدينة ميلانو ، في الشمال الايطالي ، في ١٨ اغسطس عام ١٩٣٣ . وقد انصرفت الى دراسة الموسيقى في معهد فيردي الموسيقي في ميلانو ، وتتلمذت فيه على يد الشاعر كوازيمودو في الادب الايطالي ، ولعل لذلك صلة بتقوية ميلها الشعري الذي كان قد رافقها منذ الحداثة ، الى جانب حبها للموسيقى والرسم . كما ان لهذه الصلة المدرسية بين الشاعر وتلميذته صلة بالمقدمة التي وضعها كوازيمودو لتلميذته في هذه المجموعة الشعرية الثانية التي اصدرتها اخيرا عن دار ريبيللاتو ، في بادوفا . وكانت مجموعتها الشعرية الاولى قد صدرت عن دار شوارتس عام ١٩٥٨ ، بعنوان : «طريق الذهب القديم» La strada dell'oro antico

في عام ١٩٥٣ تخرجت آنيزيني من معهد فيردي تحمل شهادة الموسيقى ، كعازفة بيانو ، واشتركت منذ ذلك الحين في عدد من الحفلات الموسيقية ، كما اخذت تدرس التأليف الموسيقي كذلك ، وتمارس في الوقت نفسه هوايتها المفضلة ، وهي الشعر ، وتكتب في عدد من الصحف الادبية ، مثل Il verri — Quaderni della crisi — Galleria

وقد ذكرت لي في رسالة بعثت بها مع المجموعة الشعرية الجديدة انها عاكفة الان على وضع رواية ، ومجموعة اخرى من القصائد الغنائية .

واذا كان من اسباب صلة الشاعر كوازيمودو بهذه الشاعرة الشابة انها تتلمذت عليه في معهد فيردي ، فان هناك صلة اخرى غير التلمذة والاستاذية ، وهي اهتمام الشاعر الكبير منذ سنين في التعريف بالشعر الايطالي الحديث ، وجمع الكثير من نصوصه في كتب تقرّبه الى طلاب المدارس والى عامة الدارسين . وقد اصدر من ذلك حتى الان ثلاثة اجزاء بعنوان «الشعراء الايطاليون بعد الحرب العالمية الثانية» Poeti Italiani del secondo dopoguerra جمع فيها العديد من انتاج هؤلاء الشعراء والشاعرات الذين برزوا في الفترة التي تلت الحرب الاخيرة .

يقول كوازيمودو في مقدمته لمجموعة «المدينة الخامدة»:

« يتجه شعر آنيزيني نحو تحديدات واسعة في الزمن والمدى ، عبر غنائية كثيفة الخطاب ، وسلسلة متناسبة تكاد لا تنقطع، حول وقائع الملحمة الصغرى للانسان المعاصر . وتتنامى « متناقضاتها » في موضوعية مزّة المذاق احيانا، غير ان الرغبة في ايضاح نفسها في الوجود وفيما حول روحانيات الوجود الحائرة القلقة قوية لديها ، وموسيقيتها قائمة على انغام سريعة . والمشاهد الداخلية والمرئية (مثل قصائدها في : لومبارديا ، والات الاكورديون ، ورمزية المدينة الحديثة ، وصحراء حلبة الرقص) تتحرك وتصعد في منعرجات لولبية لا تحتاج الى ركائز شعرية او وقفات سواها . وفي بعض الاحيان يتسرب الى صوتها شيء من التعابير الفنية « الباروكية » الاسلوب . ولصورها الادبية دعامات منطقية ، من ذلك النوع من المنطق الذي يقرر الاتصال الاول بأسباب الموهبة الخلاقة. وريجينا آنيزيني، كشاعرة من جيلها المتارجح القلق ، تعرف مقدار الصعوبة التي تعترض اليوم كتابة الشعر . ومن المؤكد ان طريقتها في نظم الشعر ووضع نهاياته في هندسة معينة ، متنوعة (فما وراء المنظور يرتبط بالتصور ، او بالمجرد ، او بالواقع).

وخواتيمها الشكلية غريبة عن استهلالات الموازين الشعرية لدى شبان شعراء اخرين ممن يواجهون عادات العالم المعاصر ، او منطقه الجدلي ، بتحليلات محكيّة هي الى المقال النقدي اقرب منها الى الشعر ، حتى لو استطاعت تغيُّراتها ان تبرّر خواتيمها العجيبة » .

ويختم كوازيمودو مقدمته هذه بقوله :

« ان (المدينة الخامدة) لدليل على النضج الخلاق لدى الشاعرة » .

* * *

وفي هذه المقدمة شيء يشير الى ما شعر آنيزيني من صور ، كثيرا ما تبدو متنافرة متناقضة ، او تبدو دون رابطة وانسجام ، او هي هكذا على الاقل لدى القارىء الشرقي الذي لم يألف بعد هذا النوع من الصور والتخيلات التي يجتمع فيها اكثر من لون شعري واحد ، واكثر من مذهب ادبي وفني معين .

واذا كان الشعر انعكاسا للصورة التي تنطبع في نفس الشاعر ، والقصيدة مرآة للاحساس النفسي ، وصدى للانطباع الداخلي ، فاننا نرى في الاصداء الداخلية التي تعكسها قصائد الشاعرة الايطالية الشابة اشياء قد تبدو شفافة معطية ، واشياء اخرى اكثر منها غامضة ، معقدة ، بخيلة جدا بالبوح والعطاء ، ولا سيما حين تتلاحق الصور غير مترابطة في نفس القارىء — حتى لو كانت في الاصل وثيقة الترابط في نفس الشاعرة — اي ان الشاعرة لم تستطع ان توصل تخيلاتها وصورها واحاسيسها الى القارىء كما هي مرسومة في ذهنها واحساسها . وهي حينا رمزية العبارة ، وحينا سرياليتها ، وقد تكون في بعض الاحيان اقرب الى الرومانتية ، او الى الواقعية ، او اشد (انغلاقية) من غلاة « الهرميتيين » المعاصرين .

لقد كان هذا شعوري وانا اقرأ مجموعة آنيزيني الجديدة ، فعلى الرغم من انني لم اجد صعوبة كبيرة في فهم شعر كوازيمودو ، واونغاريتي — وهما اكبر الشعراء « الهرميتيين » في ايطاليا اليوم الا انني وجدت كثيرا من الابواب المغلقة في وجهي وانا اقرأ قصائد « المدينة الخامدة » . وكم حاولت جاهدا ان اجمع اجزاء الصور الشعرية في بعض قصائدها ، لكي اؤلف منها صورا قريبة الى الذهن ، فلم استطع ذلك احيانا . من ذلك مثلا قصيدة بعنوان « كان من قبل حادا » Prima era intenso وهي :

كان عطر منديلك حادا من قبل
على شراع بارد لا شكل له تسيره الريح
في واجهة زجاجية . ولكنه في الشتاء
يجيء كبصيص الرجاء ، او كالسؤال
او كالحب في ضوء قمر كاب رطب .
ينظر اليك طائر النورس ، ذو الخطى المكرَهة
كأنها الظل ، يستريح عزيزا على شفتيك

ويرى القارىء كيف تتلوى هذه الصور والخيالات وتتعرج بشكل لولبي حقا ، كما دعاه كوازيمودو في المقدمة ، وكيف تكثف بشكل لا يبين معه الرسم ولا تبرز تقاطيعه .

وفي كثير من القصائد الاخرى تتعدد الصور وتتلاحق بشكل لا يسمح للقارىء بأن يحس بترابطها معا . على الرغم من ان بعض تلك الصور الذهنية يعطي معنى الدفء في الاحساس ، ويشعر القارىء بزهوة في اللون ، واشراقة في الصور ، ولطف في التعبير .

ومن ذلك اولى قصائد الديوان وعنوانها : « لومبارديا » Lombardia

هذه هي ارض الصاعقة والجرذ
والريح في المياه النباتية الرحيبة
تصرخ فيها بملء حنجرتها
معبرة عن وفاء العنصر الاخضر .
انها ارض الاحساس بالامومة ، وذكريات الطفولة
على موجات نهر « تيشينو »
ولؤلؤة القمر في الرمل ،
وقبضة هنيبال . لقد جاء الشتاء
شتاء الخدائع العزيزة الغالية
والرسوم العربية الطراز في السهل
عندما ينفلت الخشخاش اللامع
من مجموعة النوافذ في القصور . والحب هو المعرفة .
والان في الشمال ، في اقصى الشمال ، الاسئلة الجديدة المتقطعة
ارض سوداء ، في المراسي الطرية في الحقول ،
وانحناءة الشمس فوق الضباب . والانهار
المكرهة على الوداعات المترفعة،حيث تنقش بشكل عجيب
نفخة على الفخار الكاذب

فالقارىء الذي يحس بدفء معنى « الامومة » لدى الحديث عن الوطن ، وبلطف « ذكريات الطفولة » ، و «وفاء العنصر الاخضر » ، و « انحناءة الشمس فوق الضباب » ، وامثال هذه التعابير الحلوة التي تفيض بجمال الحس الشعري ، وتعكس لطف التصور في خيال الشاعرة ، هذا القارىء نفسه لا يعرف كيف يركب من بقية التعابير صورة شعرية متكاملة ، ولا يدري كيف يصف الارض اللومباردية التي تتحدث عنها الشاعرة . فاجتماع (الصاعقة — والجرذ — والريح في المياه النباتية) ثم (احساس الامومة — وذكريات الطفولة — وقبضة هانيبال — ولؤلؤة القمر في الرمل) وكذلك بقية الصور في القصيدة ، هو امر لا يسمح للقارىء بتلمس الصورة التي في نفس الشاعرة ، حتى لو كان هذا القارىء ممن يقبلون منطق الزاعمين ان الشعر ينطلق من « اللاوعي » ، وانه لا يمكن ان يكون شعرا اذا كان للوعي فيه اية لمسة . صحيح انه لا بد احيانا من لحظات يكون فيها الشاعر في دنيا خاصة به ، او جو لا يشاركه الاحساس فيه سواه : يتخيل ، وينطلق في عوالمه الواسعة وحده ، ويلتقط الصور كما يراها في ذلك الجو النفسي

الخاص . ولكن حتى في هذه الحالة يظل في صوره الشيء الكثير مما يمكن للآخرين ان يشاركوه في تصوره ، او على الاقل في تلمس جوانبه .

ولا شك ان الشاعرة تعيش لحظاتها الشعرية في اجواء خاصة ، ولكنها اجواء « خاصة جدا » ... او هي على الاقل غريبة عن دنيا الجماهير القارئة ، الا اذا كان القارىء نفسه (خاصا جدا) كذلك . ومن هذا الطراز قصيدة « الزمن المتحول » Tempo che muta وهي كما يلي :

تعود « الزَهرَة » في الكتابات
المنشورة في الفضاء ، وفي الانسياب الرحوي
للنجمة المصنوعة للدعاية . ومبرِدٌ من البرد
على النافذة . هناك في الاشارات المتقطعة
الاصوات الواهنة ، وايقاع الانامل العظيمة
على طبل المدينة الكبيرة ، والابواق النحاسية المطفأة ،
والفوانيس التي تنير المرسى في الميناء بعازلات قديمة
سحرية ، وظلال
بنفسجية ، والحشائش تمور في موجات قذرة
(كانت هي الحاجز بين احد الاصوات واغنية حلوة
علم سلّم الزمن المنحرفة ،
الزمن المتحول ، في وقفات تجريبية ،
رسائل غريبة من طبل هندي تدق رموزا
للحب والموت) . يا لتلك الاصداء كيف تعود !
ان الماضي لا يعزل شيئا عن حينه المحدود . والضباب
يرتفع وهو يلقي نظرة لا مبالاة طويلة .

وكذلك قصيدة « الشرفة » Il Balcone :

على فرع لبلابة تتسلق
في القرن العشرين صورة ذات دخان
وتخضعها لخيالها الكئيب .
على الشرفة بين الستائر المنتفخة
والخُبّيزة ، تجلس النساء المخصبات
وعلى المقعد الاخضر الخالي
تمضي التواءة طابق سادس ، ذي سطوح مشرّعة
الى السحائب السحرية . والماء
يمضي كالطاحون امام خطم انسان غير ذي نسب معروف .
وعلى لوحة الاصباغ يعلّق بائعُ الصحف
« فينوسَ » بين مرايا الجزَيئات القذرة
حيث يلتهم الطفل
البرتقالة والشمس فصوصا متلاحقة ،
وعلى ولادة مدمدمة ، يتعاقب
العالم كله منشرحا على لوحة الذهن ،
بينما تصرخ جنّيات البحر في وسط النهار
والنافذة تبتلع الضياء .

وهذا نموذج آخر ، في قصيدة « نحو الشرق » Verso l'est :

نحو الشرق ، قصبات الياسمينة الثلجية
حيث يخفي بلدي
في ظلام صقيعه القديم
رَكبَ العذراوات الشمالية .
وتنطلق اشارة من بوق سيارة
وفي آن واحد مع هواء المداخن الاحمر
يسند الحراس اذرعهم ترقبا
على وقع خطى حمار وحشي كئيبة
تبعثها الوحدة القاسية ، وعلى رقاد المرضى
وانغام قِربةٍ موسيقية
والطبيعة ما تزال آثمة .
وفي شعور الاحداث الشقراء
يتلاشى الزمن في الحب الامين

واحداث العالم الكبرى ، والاختراعات العلمية التي تهز الدنيا وتاتي كل يوم بمدهش عجيب ، تجد صداها في شعر « آنييزيني » . ومن ذلك قصيدتها « الضفة الارضية » التي لا تختلف الصور فيها عن غيرها من الصور اللولبية في القصائد الاخرى الوجدانية: الوصفية والعاطفية. ولكن في خيالات هذه القصيدة حسا يكاد ينطق ، يكاد يبوح ويشفّ اكثر مما تشف خيالات القصائد الاخرى التي مرت بنا وتبوح ، او هكذا يخيل الي . وهذه «الضفة الارضية » La sponda terrestre :

في المهد المائي ذي الزوايا الاربع
صوت ضفدع عذراء شاذ
يدعو المطـر .
وترتعش دفعات العصافير .
اكانت الضفة الارضية حاسرة القناع ؟
وسعادة الحاكم
يرقص من طرف الدنيا الاخر ،
بينما يجتمع رؤساء الحكومات
ليقرروا موائد الفضاء الجديدة .
ويمضي الانسان يدور كالنار
على انفاسه ، او على جنون سهم ناري ،
ولكن هل كان النظام الكوني حقا في تلك الجعبة القديمة؟
لقد عرفنا شيئا عن ثياب العمل الفضائي
الواقية من الشمس ، مما قرأناه في عناوين الصحف .
والناس وقوف
على اكشاك الصحف في العالم يبدون تعليقاتهم : اكان اميركيا ويتقدمه اخر روسي في الاسفار ؟ فوق او تحت
لا بد من حجز مكان في القمر .

وليس شعر ريجينا آنييزيني شيئا غريبا ، بل هو بعض من الشعر الذي اصبح اليوم مالوفا في ما ينشره شعراء الاجيال الجديدة ، والذي ينظر الى الداخل : الى الصورة التي في ضمير الشاعر ، لا الصورة المالوفة ، او الحسية الواقعية . وهذه الصورة الداخلية تختلف كثيرا بين شاعر واخر . والشاعر اليوم كالرسام الحديث ، الذي يجعل

ارتكازه الفني على « التجريد » ، وقد يجيء في فنه التجريدي بشيء فيه شفافية جميلة حلوة معبرة ، وقد يغيب موضوعه وراء الالوان الداكنة دون ان يبوح للناظر بشيء . اليس كذلك فن الكثيرين من رسامي اليوم ، مقلدي بيكاسو عن وعي وعن غير وعي ؟ واذا كان المتأمل يقف طويلا امام صورة غارقة في الالوان ، يحاول ان يعطيها اسما ، فلا يوفق الى ذلك ، لانه لم يدرك فكرة الرسام كما كانت في صميمه عندما رسم لوحته ، فان قارىء الشعر الحديث ، ولا سيما شعر الشبان بعد الحرب العالمية الثانية ، قد يحاول طويلا ان يكدّ ذهنه لكي يلحق بخيال الشاعر ، ولكنه قد لا يوفق الى وضع يده في مكان المسامير . . .

أترى من حقنا أن نلوم هذا الجيل الجديد ، الذي اصبح يُدعى ــ بحق او بغير حق : « جيل القلق » ، او « الجيل المتأرجح » كما دعاه كوازيمودو في مقدمة كتاب آنييزيني الجديد ــ لانه يعبر عن نفسه بطرائق لم تألفها الاجيال التي سبقته ، والتي لم تعرف هذا القلق العصري ؟

وليس الامر مقتصرا على الجيل الجديد من شعراء الغرب فحسب ، فنحن ايضا لدينا جيل جديد من الشعراء كذلك ، ولدينا شعر يقلد « جيل القلق » الغربي ، في « قلقه » ، وفي اوهامه وخيالاته وصوره المختبئة وراء الضباب الكثيف . بل لعل اكثر شعرنا اليوم من هذا القبيل الغريب الذي لا ينسجم مع حسنا الفني المألوف . وهو ليس اصيلا في طبيعتنا ، بل مستورد من الغرب ، وكذلك تعابير (القلق ــ والحيرة ــ والضياع) وما اليها ، بضاعة مستوردة ايضا .

وانا اذا كنت قد قدمت للقارىء في هذا المقال شيئا قد ينكره ، لانه ــ مثلي ــ قد لا يستطيع فهم الكثير منه ، فانما فعلت ذلك لاقدم نموذجا من ادب يعيش اليوم وينمو على اقلام كثيرة جدا ، في الغرب والشرق على السواء . اما ان تكون هذه الالوان الجديدة جديرة بالحياة او غير جديرة ، فهذا امر تقرره الايام ، لا نحن وحدنا ، والايام عوّدتنا ان لا تقبل الا ما هو جدير بالحياة ، وما فيه كل اسبابها وعناصرها الحية القوية .

وقد اختلف انا مع صديقي كوازيمودو في ما قاله في ختام مقدمته للكتاب ، اذ اعتبره دليلا على « النضج الخلاق لدى الشاعرة » ، لان الصور النفسية والذهنية التي فيه مما اصبح مألوفا لديه ولدى غيره من الغربيين ، الا ان اختلافي معه ليس هو الذي يقرر جدارة هذا الشعر بالحياة او عدم جدارته . بل لقد اذهب الى ابعد من هذا ، فأعتقد ان هناك كثيرا من الشعراء العرب الجدد سيجدون في هذا الشعر (الآنييزيني) موهبة ناضجة خلاقة ، كما وجد فيه كوازيمودو .

عمان — عيسى الناعوري

الاديب

لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية
للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي
٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي
في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات بالبريد العادي
٢٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار :

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد ادنى

في الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنى

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

تليفون : الادارة ٢٢٣٨١٩ Direct : 223819 Tél.
المنزل ٢٢٥١٣٩ Dle. : 225139

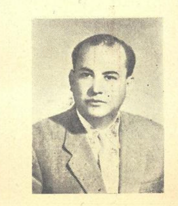
توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب ــ صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت ــ لبنان

في ايطاليا

فؤاد الخشن



نابلي
اي لقاء رائع
بطيور البحر
باللحن البعيد الضائع
خلف اطياب زهور البرتقال !
بصدى قصة حب مفجع
صب « لا مرتين » فيها
دمع حب اول
فوق شعر مروحي مرسل
فوق زهره
من زهور الجزر
بنت صياد فقير ... اغرقت
قلبها الطفل بأولى الادمع !

•

جنوى !
خلد الازاميل الدقيقه
في تماثيل عريقه ...
في مقابر
جمدت عند تجليها البصائر !
قارئات قصة الفن
الذي استعصى على الموت
بازميل مكابر !

•

وجه روما !
ابنة التاريخ ...
اصداء العصور البائده
ارض « رافائيل »
ذياك الملاك الناعم
مبدع اللون الشفيف الغائم
و « ليونردو » الغضوب الثائر
مارد الفن وعملاق القباب الخالده !

•

طيف فينسيا تغطيه غلاله
من ضياء القمر
وقصور الضفتين
هبطت تسبح في صفو المياه الراقده
وحبيبي العسلي المقلتين
يتلوى فوق زندي غلمة في شفتين
ولظى ثغر مشوق حائر
ثملا بالليل والجندول ... والشدو
ورعشات الظلال
وبايقاع المجاذيف على ماء القنال !

الموت في الغربة

***

اسدل الليل ستاره كل شيء ساكن حولي يوحي بالكآبة والرهبة كنت متمددة على سريري مائلة امام شريط سينمائي الا وهو خيالات الماضي الجميل انها تمر امام ناظري .

ها هي ارض الوطن الغالي وها هم اخوتي اهلي أصدقائي والصديقات ها انني امدّ لهم يدي مصافحـة واختفت الخيالات فجاة . وجلست اعيش في الواقع المرير .

انا في غرفة بعيدة عن هذا الخيال كل البعد بعيدة عن وطني أين انا ؟ لا ادري . أليس هذا انتحارا ؟

نهضت من سريري فتحت النافذة نظرت الى السماء انها غيوم كثيفة تحجب جمال النجوم والقمـر ولكن لن تحجبني من ان اطلب المغفرة من ربي . رباه اغفر لي ذنوبي . يا رباه ارحمني .

وشعرت بأن الدموع تنفجر من عيني مدرارا وتنساب على وجنتي اغلقت النافذة وقفت امام المرآة احدث نفسي بصوت عال .

ما فائدة الحياة ؟ الا زلت اعيش ؟ ولماذا ؟ تبا لك أيتها الحياة التعيسة اغربي عني لقد سئمتك ومللتك .

يا ربي ما هذا العذاب المرير أين الموت؟ انها النافذة ولكن لربما لن اموت اذن تذكرت ما هذه الا وهي المدية اعتقد انها حادة أجل حادة لا بأس أين يدي؟ هاهي ذي يدي والان لاحضر ورقة وقلما لكي اكتب ما في نفسي مودعة بها الحياة .

اقتربي ايتها المدية . ها هي المدية بيدي اليمنى جلست في سريري ارقب ويدي محدقة . رميت الساعة على الارض وبدات اسمع دقاتها وبدات اسمع دقات قلبي معها قربت المدية بيد مرتجفة من معصمي ولكن كم كنت مترددة بين الحياة والموت ولكن اغمضت عيني وبحركة لاشعورية قطعت شيئا في يدي اخ .. انه الدم يتدفق بغزارة من يدي واحجبت نظري حتى لا اشعر بالخوف وبدات اسطر رسالتي الاخيرة مودعة .

وداعا ايتها الحياة . وداعا ايها الماضي الجميل . وداعا يا وطني الحبيب وداعا ايتها الاشجار المنبثقة وداعا يا اطيار وداعا ايتها الجداول المنسابة وداعا يا روابي يا سهول وداعا ايها الربيع ايتها الزهور ايها الطريق . وانـت يا صديق الشؤم انت يا خريف لقد كنت لي نعم الصديق وداعـا يا خريف . وداعا يا اختي ارجوك لا تبكي علي لان هـذا يؤلمني كثيرا . اذكريني كلما رأيت رسمي المعلق على الحائط اذكريني كلما رايت تلك الصورة التي احبها واهديتك اياها فوداعا ووداعا اخيرا يا اختاه نعم انه الوداع الاخير يا اخي ويا ابي العجوز .

وداعا يا زمان قلت لكم يوما سأعود ولكن حينما يطول انتظاركم لعودتي ستعرفون ما حل بي لا اريد ان اخبركم خوفا من الدموع ان تحرق مآقيكم وتسكبوا الدمع غزيرا انني احبكم يا رفاق . مسكين انت انت ايها الحبيب قلت لي يوما لو اصابك اذى سأنمحي من الوجود لا لا تفعل شيئا أهل انت مجنون كن طموحا وتمتع في ارض الوطن ولا تنس ان تذكرني وان تبني لي تمثالا في فؤادك اذكر انني كنت احبك وها هي روحي ستحوم حولك وانني سأنتظرك هناك وسنلتقي من جديد ونذكر اياما لن تعود .

والان لقد جاء دورك يا امي الحبيبة هيا افرحي هيا امرحي افتحي صدرك مدي ذراعيك انني قادمة اليك لقد نفد صبري كم انا مشتاقة اليك يا امي الحنونة منذ امد بعيد منذ ان تركتني طفلة صغيرة وحيدة بدون عطف من غير حنان اعارك الحياة والالام انني قادمة اليك لكي اضع راسي على صدرك الدافىء ها انذا اسير الهوينا قادمة اليك . امي يا امي ما اعذب ابتسامتك ما ادفأ صدرك ما اجمل قلبك النابض بحبي ما اجملك .

انظري يا اماه اليس جميلا انه ثوبي الابيض ثوب الزفاف لقد اشتريته من لندن انه رائع . انظري شعري الاسود . انظري الغطاء التول الذي يكلل راسي الم تدري يا اماه ان هذه الليلة ليلة زفافي .

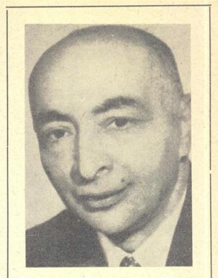
ماذا يا رباه انها الدماء تغمر الورقة جلت حولي انهـا الدماء الساخنة تغمرني . ألم شديد في رأسي وها هو العرق يتصبب من جبهتي غزيرا قشعريرة قوية تهزني ما الذي انتابني أهل نسيت .

انني لا اقوى على الكتابة لقد ارتمى القلم من يدي وارتمى جسمي فوق السرير انني اكاد افقد ذاكرتي .

اكشفي هذا الستار الاسود يا امي عن عيني انه سواد على سواد ان الطبيعة ارتدت جلبابها الاسود وحزينة على من لا ادري .

انني أجد نفسي احلق واطير ما هذا البرد الشديد ، أهل جاء الشتاء وحل الصقيع ؟ انني اذكر انـه فصل دثريني دثريني يا امي ضميني الى صدرك هللي غني لي تلك الاغنية التي اعتدت ان اسمعها عندما كنت صغيرة في السرير اجلسي هنا بقربي رتلي لي قليلا انني اريد الرقاد ، الى اين هل ستتركينني ثانية بعد ان وصلنا الى الوطن انه العلم يرفرف في سماء بلادي الصافية ها هي الارض الطيبة انني اعود .. ما اشد بؤس المنفى .. يا ام .. ا .. ه ..

دمشق — نظمية جاويش



الدكتور ابرهيم ناجي

شوارد للشاعر ابرهيم ناجي

بقلم وديع فلسطين

* * *

اتسع صدر « الاديب » لفصلين اسلفت كتابتهما عن الشعر الضائع لصديقنا الشاعر العظيم الراحل الدكتور ابرهيم ناجي ضمنتهما طائفة من شعره الذي خلا منه ديوانه المنشور بمعرفة الاساتذة احمد رامي وصالح جودت ومحمد ناجي والدكتور احمد عبد المقصود هيكل ، ذلك الديوان الذي تحالف عليه السهو والخلط ، فحوى شعرا ليس لناجي ، واهمل شعرا كثيرا نشره ناجي في ربوع العالم العربي ، وجاء في مقدمته وعد بان الديوان سيذيل بفهارس وقوائم فلم يتحقق من هذا الوعد شيء ، فكان ان سحب الديوان من التداول بعيد صدوره واقترن ظهوره بمساجلات عنيفة ورفعت بسببه الدعاوي القضائية واصابه من سوء الحظ مثل ما اصاب شاعرنا ناجي في حياته التي انقصفت قبل الاوان .

واستطرادا من ذينك الفصلين واستدراكا لهما نثبت هنا طائفة من شعر ناجي الضائع المضيع قياما بواجب الوفاء لهذا الشاعر الموهوب وانصافا لشعره الذي ملأ به الدنيا فعز على اربعة من عتاة الشعراء والمحققين ان يجمعوه في ديوان .

* * *

في عام ١٩٤٦ زار الدكتور ابرهيم ناجي فلسطين العربية لالقاء محاضرات في مدينتي القدس وحيفا ، فكانت زيارته ولودا منجابا ، اذ تدفق شعر ناجي في كل مكان ، يرتجله كعادته ، ويتحدى به اهل السمر والادب ، ويداعب به رواد مجالسه فيجلي دائما لفارس لا يغلب .

وقد اجتمع طائفة من رجال الادب والشعر في منزل صديقنا الاستاذ رشيد خوري وكيل بلدية حيفا يومئذ وكان في جملتهم الشاعران وديع البستاني ونبيه ثابت ، لتكريم الدكتور ابرهيم ناجي والحفاوة بمقدمه . وكانت ابنة رب البيت « جاكلين » في براءة طفولتها تنتقل من مكان الى مكان تحيي الضيوف وتقدم لهم الوان الفاكهة والحلوى . فعن للشعراء الثلاثة ان يتباروا في وصف هذه الفتاة الهيفاء، ولكنهم استعاروا اسم مدينة « حيفاء » بدلا من اسمها مراعاة للجو المحافظ الذي كان يعيش فيه عرب فلسطين . وكانت قصيدة ابرهيم ناجي اولى القصائد ، وتلتها قصيدة وديع البستاني فنبيه ثابت ، ولا بأس من ايرادها هنا بعد ان انقضي على نشرها للمرة الاولى خمسة عشر عاما ، وكان ذلك في كلمة لي بغير توقيع نشرت بعنوان « ثلاثة شعراء في حيفا » في مجلة « الاديب » الزاهرة في شهر مارس (آذار) ١٩٤٨ :

حيفاء والحسن يسبي	ماذا صنعت بقلبي
يا اطهر الناس نفسا	برئت من كل عيب
فان اهم بك وجدا	فما المحبة ذنبي
الذنب للحسن تاجا	علاك ، سبحان ربي
ان صرت نجوى صلاة	او صرت معبد حب
او صرت الهام قوم	فحلقوا فوق سحب
فقد رضيت بأني	منهم ، وحسبي حسبي
الشعر يا وحي شعري	اذا دعوت يلبي
لو دان للفكر عندي	عصيه المتأبي
ملأت دنياي شعرا	ما بين قطب وقطب
مخلدا لجمال	ككوثر الخلد عذب
مجلجلا بقريض	يصبو له المتنبي

وفي تلك الرحلة الفلسطينية عينها ادبت للدكتور ابرهيم ناجي مأدبة اخرى لتكريمه في منزل صديقه الاستاذ رشيد خوري ، فتبارى الخطباء في تحية الشاعر الكبير بلسان يعرب آنا وبلسان شكسبير آنا ، وتطوعت « جاكلين » الموهوبة لترجمة ما يقال لفائدة الذين يجهلون اللغتين ، فارتجل ناجي ابياتا ثلاثة هي :

يا للمباراة ما بين الاساطين	من مصر شنت لظاها في فلسطين
اللفظ قام مقام السيف فانطلقت	شتى الملاحن من شدو يغنيني
لم ادر معنى لها حتى اصخت الى	حلو التراجم من انشاد «جاكلين»

وقبل ان يؤوب الدكتور ابرهيم ناجي من رحلته الادبية الى القاهرة ، عرّج على مقر بلدية حيفا لتوديع صديقه

رشيد خوري وكيل البلدية ولشكره على ما لقيه من حفاوة في حله وترحاله ، وطلب سجل البلدية ليدون فيه انطباعاته ، فانطلقت منه هذه الشاردة :

سلام الشعر والشعرا على البلدية الغرا
على حيفا على بلد يفيض على الورى سحرا
ويعكسه كمرآة عليها النور قد مرا
فيبدو في اكابرها وفي اعمالها الكبرى
ربيعا وارفا ابدا لهذي الجنة الخضرا

وكان ناجي حريصا على ان يحيي « جاكلين » كلما صادفها فيطلب منها « دفتر التحايا » (أي الاوتوغراف) ليدون فيه خواطره . فكتب فيه مرة :

اذا تغيرت الايام واختلفت قومي اقرأي ذاك من حين الى حين
وما اراني ساتسى العمر مجلسنا ولا الليالي احبائي تنسيني
نمضي وتبقى على مر السنين هنا هذي التحية من ناجي لجاكلين

وفي مرة تالية طلب ناجي « دفتر التحايا » فقرأ فيه تحية من الشاعر خليل مطران فعقب عليها قائلا :

ان مطران قد دعاك وسمى انا لو جئت كنت سميت قبله
«عبلة» ، انها لشيء نسينا انت احلى «يا جاك» من كل عبله

وفي مرة غيرها كتب في « دفتر التحايا » يقول :

عجبا تطلبين « يا جاك » وصفي انت من جل في المحاسن وصفا
انت كرم من الجمال ولكن عجز الشعر عن معانيك قطفا
انت لطف منور قدسي دق حسنا وجل شأنا ولطفا
بنت حيفا حسدت حيفا وعندي لك ود ما بين مصر وحيفا

و « جاكلين » الموحية قد صارت اليوم محررة مرموقة في جريدة « الاهرام » .

والمطوي من شعر ناجي كثير كثير ، وقفنا على بعضه واذعناه ، وما زال بعض منه نهبا للايدي الامينة وغير الامينة ، يعرف البعض قيمته ويجهل البعض نفاسته ، وليت ذوي الالباب والضمائر يبعثون هذا الشعر من مراقده فلا يذهب بددا ولا تفلت شاردة من قانصيها .

الحاقا بما استدركناه من شعر صديقنا المرحوم الدكتور ابرهيم ناجي نورد في ما يلي قصيدة جديدة وقعنا عليها وهي بدورها مما غاب عن جامعي ديوانه ان يدرجوها فيه . ويبدو اننا سنظل نستدرك على كل استدراك رجاء تنبيه الاذهان الى ما تعرض له الشاعر ابرهيم ناجي بعد وفاته من ظلم حين نشر ديوانه ناقصا نقصا مخلا ، ولو كان ناجي على قيد الحياة لما رضي عنه .

أما هذه القصيدة الشاردة فقد نظمها ابرهيم ناجي في مناسبة حفل التكريم الذي احتشد له الادباء والمفكرون في الولايات المتحدة والخارج للحفاوة بالشاعر الراحل الدكتور احمد زكي أبي شادي في عام ١٩٥٠ . فقد ادبت له يومئذ مادبة عشاء كبرى في فندق والدورف استوريا في نيويورك وتعاقب الخطباء والشعراء على تعداد مآثر ابي شادي ، وكان في عداد ما تلقته لجنة التكريم قصيدة من نظم ابرهيم ناجي اثبتها صديقنا العلامة الاستاذ محمد عبد المنعم خفاجي في كتابه « رائد الشعر الحديث » طبعة ٢ — جزء ١ — ص ١٠٣ وعنه ننقل هذه الخريدة :

من جانب النيل أصداء لامريكا لحن من القلب لم يفتأ يناجيكا
فيا طويل التنائي هل الى عدة ان الليالي طوال في تنائيكا
ان كرموك فكم قلب هنا غرد مكرم لك ، شاد بين أيديكا
ما أعظم الفن يسمو وهو مغترب وكيف تجزع حين الفن حاديكا ؟
هذي نسيمات شوق من جوى دنف لعلها عن أمانينا تنبيكا
يا شاعر الفن غرد في خمائله وغن واسم وجدد في مراميكا
اقول للفن : سبح ثم مل طربا أقسمت ان ابا شادي لشاديكا
ان لم تكن انت عين الخلد دانية فانه لذرى التخليد داعيكا

القاهرة ابراهيم ناجي — ودیع فلسطین

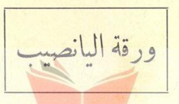
نداء

أنادي برغم اصفرار المغيب وبعد المسير وهول الرؤى
أنادي وصمت عنيف الصمود أضل سبيلي وأوهى المنى
ألا من سميع يجيب ندائي يذيب السكون يرد الصدى

الام أظل أسير الهدوء أريد ضجيجا يعم المدى
أريد حياة تظل كياني وتفني وجودي وتمحي الانا
وأبقي اندفاعا يساوي اندفاعي يلف الوجود ويحيي الورى
فهذا السكون يشل ضلوعي وهذا الخفوت يفل الكرى

أجيبوا ندائي نداء الحياة ورووا وجودي بعذب اللما

دمشق سلافة العامري



لانطون تشيخوف

ترجمها عن الروسية
رضوان ابراهيم

ايفان ديمتريفتش شاب فقير ، يعيش هو واسرته على الف ومائتي روبل في العام ، وهو في غاية الرضا بنصيبه في الحياة .

جلس ذات ليلة بعد العشاء على الاريكة يتصفح الجريدة ، فقالت له زوجته التي كانت تقوم وقتذاك بتنظيف المائدة :

— نسيت ان اتصفح الجريدة اليوم، انظر ، الا ترى عندك نتائج سحب اليانصيب ؟

واجاب ديمتريفتش :

— نعم ، هنا ، ما رقم تذكرتك ؟

— رقم المجموعة ٩٤٩٩ ، أما رقم التذكرة فهو ٢٦ .

— حسنا ، لننظر رقم ٩٤٩٩ ورقم ٢٦ .

*

لم يكن ايفان يؤمن بالحظ في اوراق اليانصيب ، ولم يكن يتابع نتائجها في الايام العادية ، اما الان فليس لديه ما يشغله ، وها هي ذي الجريدة امام عينيه .

ونظر توا في ارقام المجموعة، فراى في السطر الثاني من اعلى رقم ٩٤٩٩! وقبل ان ينظر في رقم التذكرة اراح الجريدة على ركبتيه ، وقال بصوت منفعل :

— ماشا . هذا هو الرقم ٩٤٩٩ .

وتفرست الزوجة في وجه زوجها الذي كان ينم عن الدهشة والاستغراب، ففهمت انه جاد لا يمزح ، فارتكزت بيديها على غطاء المائدة المطرز، وسألته وقد شحب وجهها :

— رقم ٩٤٩٩ ؟

— نعم ، نعم موجود هنا .

— ورقم التذكرة ؟

— آه . حسنا ، لننظر رقم التذكرة كذلك !

ولكن .. مهلا ، لا بد ان كل مجموعتنا موجودة! كلها .. اتفهمين؟

ونظر ايفان الى زوجته ، وابتسم ابتسامة الطفل الخبيث الذي يتطلع الى لعبة زاهية براقة ، وابتسمت الزوجة كذلك ، وقد طاب لها كما طاب له ان يعلن رقم المجموعة فحسب، ولم يتسرع في البحث عن رقم التذكرة الرابحة ، بل راح يمني نفسه بالحظ المرتقب ذلك الحظ الحلو الرهيب

وقال ايفان بعد صمت طويل :

— مجموعتنا موجودة ، وما دامت موجودة فمن الطبيعي اننا ربحنا .

— حسنا ، والان .. انظر !

— انتظري ، لا تتعجلي ، دعينا نعيش لحظات في الاحلام ، فالوقت امامنا طويل لخيبة الامل . انها في السطر الثاني من أعلى . ان هذا يعني ربح خمسة وسبعين الف روبل ، هذه ليست مجرد نقود ، انها ثروة .. رأس مال ! والان ، فلألق نظرة خاطفة الى الجدول ، ها هو ذا الرقم ٢٦! ثم ماذا؟ ماالذي يحدث لو اننا ربحنا حقيقة ؟

*

ظل الزوجان يبتسمان ، ويتبادلان النظرات ، وقد غمرتهما فرحة الربح، حتى لم يستطيعا ان يتصورا او يتبينا ما اذا كان مبلغ الخمسة والسبعين الف روبل ضروريا لهما، وماذا يشتريان به ، والى اين يذهبان .

لقد فكرا في الرقم ٩٤٩٩ والمبلغ ٧٥ الف فحسب ، اما التفكير فيما اذا كان الربح محتملا او غير محتمل فلم يخطر ببالهما مطلقا .



واخذ ايفان يتمشى في الحجرة والجريدة في يده ، حينما هدا بعض الشيء بدا يحلم ، ثم قال :

— ماذا لو ربحنا ؟ لكن هذه حياة جديدة ! هذا شيء خطير !

الشيء الخطير انها ورقتك انت ، ولو كانت ورقتي لاشتريت — اولا وقبل كل شيء — ضيعة بخمسة وعشرين الفا ، وخصصت عشرة آلاف لشراء اثاث جديد، وللرحلات، ولسداد الديون، ثم اودع الباقي وقدره اربعون الفا في المصرف فوراً .

وقالت الزوجة وقد جلست ، ووضعت يديها على ركبتيها :

— نعم من الاحسن ان نشتري ضيعة بالطبع !

— اولا : يشترط ان تكون هذه الضيعة بحيث لا نحتاج معها الى المصيف .

— ثانيا : ان يكون لهذه الضيعة ايراد .

واحتشدت في خيالاته الصور الشاعرية الباسمة ، وفي كل صورة من هذه الصور كان يرى نفسه شبعان ، هادئا ، موفور الصحة .

وشعر بالدفء والحرارة .

ها هوذا يستلقي على الرمل الحار عند الجدول بعدان تغدى وشبع اوفي الحديقة تحت اغصان الزيزفون ...

ان الجو حار .. ان ابنه وابنته يتدحرجان بالقرب منه ، ويلعبان في الرمال ، او يصطادان الحشرات من بين الاعشاب .

ويغمض عينيه على الاماني الحلوة ، فلا يعود يفكر في شيء ما ، ويحس ان جسمه في حاجة الى الراحة ، وانه ليس من الضروري ان يذهب الى العمل اليوم ، ولا غدا، ولا بعد غد .

واذا مل الاستلقاء ، تمشى على الاعشاب ، او في الحديقة ، او تسلى بمشاهدة الفلاحين وهم يصيدون السمك بشباكهم ، وعند الغروب يتناول الصابون المعطر ، ويذهب للاستحمام ، حيث ينزع ثيابه ببطء ،

ويدلك صدره العاري بكفيه طويلا ، ثم يقفز الى الماء ، وفي الماء تنفر الاسماك ، فتؤرجح النباتات المائية الخضراء . وبعد الاستحمام يتناول الشاي مع الزبد ، والكعك الدسم اللذيذ ، وفي المساء يتنزه او يلعب الورق مع الجيران .

وتقول زوجته التي كانت تحلم هي الاخرى ، وقد بدا على وجهها انها مفتونة بخيالاتها :

ـ نعم .. نعم ، من الاحسن ان نشتري ضيعة .

ويتخيل ايفان ديمتريفتش نفسه في الخريف ، وفي الامسيات المطرة الباردة .. في هذا الوقت ينبغي ان يتنزه اطول وقت ممكن في الحديقة ، وفي بستان المنزل ، وعلى شاطىء النهر ، حتى يبرد الجو تماما ، وبعد ذلك يتناول كأسا كبيرة من الفودكا ، ويتمزز بعيش الغراب ، او الخيار ، ثم يشرب الكأس الثانية .

ان صغيريه يركضان اليه من بستان المنزل ، يحملان الجزر والفجل البري الذي تفوح منه رائحة الطين ..

اما هو فيستلقي عقب الغداء على الاريكة ، يتصفح اية مجلة مصورة ، ثم يغطي وجهه بالمجلة ، ويفك ازرار صدريته ، ويستغرق في النعاس .

وحينما تحل الفترة المظلمة الممطرة ، حيث يسقط المطر ليلا ونهارا ، وتبكي الاشجار العارية ، وتصير الرياح رطبة باردة ، وتظل الكلاب والخيول والدجاج جميعها مبللة ، مكتئبة ، مرتعشة ، ويمتنع عن الانسان ان يتنزه في اي مكان ، او يخرج من البيت ـ فانه يظل طول اليوم يتمشى بخطوات عصبية من ركن الى ركن ، وينظر بكآبة من النوافذ الغائمة ..

حينئذ يقول : ـ انا ـ يا ماشا ـ سأسافر الى الخارج .

ويظل يفكر في الجهة التي يحسن ان يسافر اليها ليقضي فترة الخريف : جنوب فرنسا .. ايطاليا .. الهند ؟

وتقول الزوجة :

ـ وانا كذلك ، لا بد ان اسافر الى الخارج ، والان .. انظر رقم التذكرة !

ـ انتظري !

واخذ يتمشى في الحجرة وهو مستغرق في التفكير ، ولكن ... ماذا لو تسافر زوجته حقا الى الخارج ؟ امن الاحسن ان يرحل بمفرده مع النساء الجميلات ؟ لا يهم ، انما المهم الا يسافر مع هذه التي لا تفكر في شيء سوى الاطفال فحسب ، وتتنهد بحسرة ، وتبخل بكل كوبيك .

وتصور ايفان ديمتريفتش زوجته في عربة القطار مع كثير من السلال واللفائف ، وهي تتنهد لشيء ما ، وتتألم لان راسها مصاب بالصداع ، ولانها انفقت كثيرا من النقود ، وانه لهذا السبب راح يركض الى المحطة ليجلب لها الماء الساخن ، والشطائر ، والمشروبات .. وفكر !

ـ ولكنها تبخل علي بكل كوبيك ، انها تذكرتها هي ، وليست تذكرتي ! امن اجل هذا تسافر الى الخارج ؟ انها سوف تجلس في الفندق ، ولن تطلق سراحي .. انا اعرف ذلك !

ولاول مرة في حياته لاحظ ان زوجته قد كبرت ، فقدت سيماء الجمال ، مع انه هو ما زال شابا ، موفور الصحة ، رطب العود ، وفكر :

ـ كل هذا بالطبع شيء تافه .. حماقة ، ولكن .. لماذا تسافر الى الخارج ؟ ماذا تفهم هناك ؟ اننا لو سافرنا معا ، فربما ضايقتني ، لانني سأكون معتمدا عليها ، وكما تسلمت النقود دفعة واحدة ، وعلى انفراد ، وخبأتها تحت القفل ، فانها سوف تخبئها مني . سوف يساعدها اقرباؤها على ان تبخل علي بكل كوبيك .

وتذكر ايفان اقاربها هي ، كل هؤلاء الاخوة ، والاخوات ، والعمات ، والخالات ، والاعمام ، والاخوال ، حينما يعلمون بالربح ، فيجيئون ، ويأخذون في شكوى الفقر ، ويبتسمون وينافقون ..

يا لهم من اشقياء يثيرون الاشمئزاز ! اذا اعطيتهم فانهم سيعاودون الطلب واذا رفضت فسوف يلعنون ويتقولون ويتمنون لي التعاسة والشقاء .

كما تذكر ايفان اقاربه هو بوجوههم التي تبدو له الان كوجوه الاعداء الحاقدين سواء بسواء .

وظل وجه زوجته يبدو له هو الاخر كوجوه الاعداء الحاقدين ، وبدات نفسه تغلي حقدا عليها ، وفكر وهو يحدق في وجهها :

ـ انها لا تفهم شيئا في النقود وهي على هذه الحال من البخل ، واذا ربحت فسوف تعطي مائة روبل فحسب ، وتضع الباقي تحت القفل .

ونظر اليها باشمئزاز وكراهية ، بادلته نظرات العداوة والحقد ، فقد كانت لها هي الاخرى احلامها وخططها وكانت تفهم جيدا بماذا يحلم زوجها ، وتعرف منذ البداية من الذي اعتدى على ربحها ، وكانت نظراتها تقول :

ـ ان كل انسان يحلم احلاما جميلة على حساب الاخرين !

ولكن .. لا .. لا يمكن !

وفهم زوجها معنى نظراتها ، وبدات عداوتها تغلي في صدره .

وازاء اساءة زوجته نظر بسرعة الى الصفحة الرابعة من الجريدة وقال بابتهاج :

ـ المجموعة ٩٤٩٩ نعم . اما رقم التذكرة الرابحة فهو ٤٦ ! ليس ٢٦ !

*

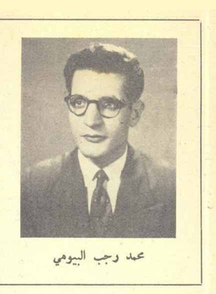
اختفى الامل والعداء كلاهما دفعة واحدة ، وظهر لايفان وزوجته في هذه اللحظة ان حجرتهما صغيرة ضيقة مظلمة وان العشاء الذي تناولاه لم يشبعهما ، ولكنه ثقيل على المعدة ، وان هذه الامسية طويلة مملة .

وقال ايفان ديمتريفتش لزوجته :

ـ ما هذا ؟ ان الشيطان وحده هو الذي يعرف كيف يجملك تنظيفين الحجرة . ان الاوراق ، وفتات الخبز ، وقشر البيض تحت الاقدام في كل مكان ، وانت لا تكنسين الحجرة ابدا !

لا مفر من ان اترك لك البيت .. سأذهب لاشنق نفسي على اول شجرة من اشجار الحور !

القاهرة **رضوان ابراهيم**



محمد رجب البيومي

مطربتان في قصر يزيد بن عبد الملك

بقلم محمد رجب البيومي

* * *

دخل مسلمة بن عبد الملك المسجد الاموي ملتفا بعباءته السوداء قبيل الفجر ، وجلس في ناحية منعزلة خلف المنبر يسبّح الله في همس دون أن يشعر به احد ، وجمل اليه الصمت المطبق في هدوء السحر حوار شيخ وقور يجلس في المحراب مع تلميذ خاص به ، فأرهف اذنيه يستمع ما يدور بين الرجلين ، لان اسم الخليفة يزيد بن عبد الملك تردد في الحوار مرات ، وكان مسلمة يعلم عن شيخ المسجد الاموي صدقا في النظر ، وسلامة في الراي ، واحاطة بصيرة بجميع ما يدور في دمشق من انباء ، لان اتباعه المخلصين من رواد المسجد يطلعونه على ما يقع بالمدينة تحت اعينهم كل يوم ، فيبدي فيه رأي الشريعة مؤيدا بالدليل ومدعما بالبرهان ، وقد انقادت له الجماهير في دمشق انقيادا قلبيا جعلهم يرون فيه اماما هاديا لا ينطق عن الهوى بل يقذف بالحق على الباطل فيدفعه !! وقد تعجّب مسلمة كيف يتحدث الشيخ عن امير المؤمنين قبيل الفجر في محرابه ، والوقت وقت صلاة وتسبيح ، الا انه جمع انفاسه واخذ يتسمع في حذر ، فطرقت سمعه هذه الكلمات يقولها الشيخ في ضجر وامتعاض : لقد خفت ان يأخذ الله دمشق المسكينة بذنوب يزيد !! لقد خالف سنّة امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز فاعتزل المسجد ، فما يلمّ به حتى يوم الجمعة ! وقد تطلع اليه الناس وانتظروا قدومه ، فلم يجدوا غير الاهمال والاستخفاف ، وليته احتجب عن المسجد وتفرغ للقاء اصحاب المظالم في قصره كما كان يفعل من سبقوه ، بل اوصد الباب في وجوه الطارقين ، ورجع الوافدون من شتّى الامصار حائرين خائبين ، وكانوا يحملون عن احوال بلادهم وولاتهم ما لا بد ان يبلغ سمع امير المؤمنين ، وكم تحملوا الليالي ذوات العدد في سفر لاغب يعانون لهيب الظهيرة وبرد الليل آملين ان يبسطوا ظلاماتهم الى خليفة رسول الله وولي امر المؤمنين ، ولكنهم — واسفاه — يرجعون بصفقة المغبون نادمين !!

فقال التلميذ في ألم : لقد علمت يا سيدي الجليل ان يزيد قد اشترى منذ شهور جارية مغنية سماها (حبابه) وهي على ما يقال بارعة الغناء ساحرة الجمال ، وقد ملكت عليه مشاعره ، فعاقته عن شهود الجمعة بالمسجد ، بل شغلته عن النظر في المظالم ، وتأمل امور المسلمين !

فرد الشيخ في اسف حزين : لقد ترامى الي هذا النبأ ، ولم اشأ ان اصدقه حتى حدثني به حاجب امير المؤمنين ليلة امس ، وقد ضاعف اسفي ان يزيد يسرف في الشراب ، ويتمادى في العبث تماديا يوشك ان يضيع به سطوة العرب ، ويرتجف له كيان المسلمين ، ولئن لم يرحم الله امته بخليفة صالح كعمر بن عبد العزيز فيا لعظم النكال ، ويا لسوء المصير .

عض مسلمة بن عبد الملك شفتيه متأوها ، فقد احزنه ان يشيع امر اخيه ، فيتحدث به كل انسان ، كما امض نفسه ان يكون بين رجال القصر من يذيعون الاسرار فتنتشر بين العامة دون خفاء ، ورأى من الحزم ان يخفي نفسه فلا يشعر احد بوجوده كيلا يقع مع الشيخ في حرج اذا تحدث الناس اليه ، انه كان جالسا على خطوات منه خلف المنبر !! فأخرج منديله ، والقاه على وجهه ، ثم التف في عباءته ، وقام يصلي الفجر خلف الامام دون ان يفطن اليه حتى جاره الذي صافحه بعد الصلاة ، ثم ذهب الى بيته متنكرا ، وفي نفسه شجون ! وبين جنبيه هواجس مشتجرات !!

ولم تكد تشرق الشمس على المدينة حتى اتجه الى قصر الخلافة ، وطلب مقابلة اخيه فقال الحاجب في تلطف : ان امير المؤمنين في خلوته الهادئة ، وقد رفض ان يقابل احدا اليوم ، ونبه علي ذلك !! فماذا اصنع ؟

فاطرق مسلمة مليا ، ثم احضر ورقة صغيرة ، وخط بها رجاءه الخاص في سرعة المقابلة لامر ذي بال ، وقام الحاجب بانفاذها دون ابطاء !

كان الخليفة يثق في اخيه تمام الوثوق ، فقد علم من بسالته في الفتوح وبلائه في الجهاد ما قر به من نفسه ، وادناه الى قلبه ، كما انه لا يخاف منه منازعة في الحكم ، ومنافسة في السلطان ، لان ام مسلمة غير عربية ، وقد شاء امير المؤمنين عبد الملك الا يلي الامر من اولاده غير

العربي الصريح !! ثم اخذ الخليفة يتساءل بينه وبين نفسه عما دفع اخاه الى اللقاء العاجل ، دون تريث ، اجاءته الانباء عن ثورة شبت في بعض الاصقاع ، ورأى من الحكمة ان يسارع باخمادها ، قبل التمادي والاستفحال ! ان الخواطر لتترادف عليه في خلوته اللذيذة مع صاحبته (حبابة) وانها لترى في قسمات وجهه ، واختلاف ملامحه ما يدفعها الى سؤال امير المؤمنين عن فحوى الرسالة ! فتعلم ان مسلمة اخاه يريد المقابلة العاجلة ، لامر جلل ! فتبتسم الى المؤمنين في (دلال) ! وتقول متضاحكة : لا بأس يا مولاي فيومنا طويل مديد !

ويتقدم الخليفة الى ردهة الاستقبال ، فيسلم على اخيه في ادب ، ويجلس الى جواره منتظرا ما عسى ان يبدأ به الحديث ...

فقال مسلمة في صراحة : لماذا يتخلف امير المؤمنين عن اداء الجمعة في المسجد الاموي مغيرا ما سار عليه آباؤه واجداده من الخلفاء !

فدهش يزيد لسؤال لم يكن يتوقعه ! ولكنه اظهر الثبات ، ولجأ الى الحيلة فقال : ان العامة من الرعية يرهقوننا بالتزاحم والتهافت ، حتى نمل ونسأم ، وانا اتحاشى لقاءهم فاصلي في القصر بعيدا عن الغوغاء !!

فرد مسلمة : واي جلال يتم لامير المؤمنين اذا اصبح فردا عاديا ، لا يتطلع اليه امل ولا يزدحم في طريقه افواج !؟

فسكت يزيد كالحائر : ووعد بصلاة الجمعة القبلة ، ليجري على سنن الآباء ، وقد ظن ان الحديث سيذهب في غير هذا الطريق ! ولكن مسلمة تابع بقوله :

لقد اوصد امير المؤمنين ابواب قصره امام الناس ، فاصبح المسلمون يغدون من العراق ومصر والمدينة والهند، ثم يرجعون بآمالهم كما جاءوا ، وكأنه ليس في دمشق خليفة يقابل الرعية ، ويحكم بين الناس !

فتململ يزيد كالمتضايق ، وقال في ضجر : لقد كرهت نفسي مقابلة الوافدين ، وطلبت من صاحب الحراسة ان يجمع مختلف الشكايات ، ثم يعرضها علي دون حاجة الى مشاهدة الرعاع !!

فتطلع مسلمة في حزم الى اخيه ثم قال ... وماذا يقول امير المؤمنين في حديث الرعية وقد اذاعوا في كل مكان انه ترك امور الدولة وتفرغ لجارية مغنية ، يساقيها كؤوس الصبابة وتسمعه اعذب الاصوات ، حتى ليس له مارب في غير النساء والغناء !! فرد الخليفة في خجل حائر : هذا امر لا يعرفه غير حراس القصر وخدمه ، والسنتهم مكبلة مقيدة ! فكيف يشيع ويذيع !

فتعجل مسلمة يقول ، وقد ارتفع صوته قليلا : لقد سمعت ذلك بأذني في المسجد الاموي فجر هذا اليوم ، وكنت أؤدي الصلاة متنكرا ، ولم اصدق القوم بادىء ذي بدء ولكنني تحريت فعرفت انك — سامحك الله — تحتجب عن الوفود ، وتنقطع في خلواتك عن الطراق ..!

فرد يزيد في اضطراب ... كل ذلك قد كان !! ثم تقطعت الكلمات على لسانه فتلعثم تلعثما مرتبكا ، وعاوده بعض التماسك فقال في خفوت : وانا امام هذه الفاتنة الفاتنة حائر خائر لا استطيع ان افارقها لحظات !

فقال مسلمة في دهشة ! ومن من اعدائك قد قذف بها اليك ، ليلهيك عن امرك فيتزعزع مكانك ، وتسلقك الافواه الشامتة بقوارصها الحداد !

فاسرع يزيد يقول في ضجر ؟ ان سعدة زوجتي قد اهدتها الي وما اظن انها من الاعداء !

فنظر مسلمة نظرة ذاهلة ، وقال في تحير : لقد ضقت والله في امور النساء ! زوجة امير المؤمنين تتنازل عن مسرتها به ، فتهديه جارية لعوبا ، تحتل مكانها من قلبه ، وتعصف بكيانه الرسمي كخليفة للمسلمين ! فيصبح مع جاريته مضغة الافواه ، وحديث السوقة والخواص !

فقال يزيد في اطراق مؤسف : ذلك ما كان ، وسأدعو سعدة اليك لتعترف بما اسلفت الي من هبات ! ثم صفق بيديه في ضيق ، فبادر خادمه بالحضور ، فطلب ان يدعو زوجته الى لقائه ! على ان يعلمها بوجود مسلمة ، لتتأهب الى اللقاء !

كانت سعدة بنت عبد الله تعرف مكانة مسلمة في قصر الخلافة ، ومنزلته من امير المؤمنين ، فارتدت حلتها المحتشمة ، واسرعت بالحضور لتجد يزيد زوجها مطرق الراس ، ساهم الوجه ، ومسلمة كالنمر الغضوب ، يدور بعينيه في الحجرة ، ثم يسلم عليها في حزم حين تقبل على مجلسه ! ولا يترك الفرصة لاخيه بل يقول علمت ان زوجة امير المؤمنين قد هدمت سعادتها بيديها حين اهدت الى يزيد (حبابة) فاحتلت مكانتها من قلبه، وشغلته عن الرعية والسلطان !!

فتأوهت سعدة تأويهة حارة ، ولم تجب ! ونظر مسلمة فوجد دمعة حائرة تلمع في عينها السوداء ، ثم تسيل على خدها ناطقة بالشجن الذائب والالم المرير فقال مسلمة في اصرار : لا احب ان اسأل فتجيب الدموع ، وانما اريد كلاما بكلام !!

فأخرجت سعدة منديلها الحريري المطرز ، ومسحت مسيل العبرة ، ثم قالت في جهشة حائرة : لقد وجدته يا عماه يلهج بذكرها صباح مساء !! ويتحدث عنها كما يتحدث عن اشهى الاماني واعذب الاحلام ! فقلت في نفسي : ان البعيد حبيب مرغوب ، ولئن عاشرها معاشرة الخليط المجاور ، لتزولن بهجتها من عينيه ، فدعوتها من المدينة على عجل ، حين ارتقى ذروة الخلافة ، واهديتها اليه بهذه المناسبة ، وانتظرت ، فوجدت القرب لا يمحو حبا يشتعل ، بل يوقد اللهيب ، ثم تمر الايام على غير التمادي واللجاج !

فهز مسلمة راسه ثم قال : واين رآها يزيد حتى اخذ يلهج بذكرها كل صباح ومساء !!

فتنهدت سعدة تنهيدة حارة ، وقالت وقلبها ينفطر : لقد حضر الى المدينة ليصحبني من بيت والدي حين زففت اليه في عهد امير المؤمنين سليمان بن عبد الملك ، وقد اقيم لذلك عرس حافل تتحدث به الاحقاب ، وغنت حبابة اذ ذاك ، ورآها امير المؤمنين فجن بها صبابة . وحدثني عنها بشغف واله حتى في الساعة الاولى من لقائنا في المدينة ! وما زال على توالي الايام يهذي بها ، وكانه يطلب مستقرا لقلقه الثائر بالحديث عنها ، فلما رايت ما يعتريه من الوجد ، جازفت بشرائها ، وقدمتها هدية حبيبة اليه ، آملة ان يروي من لقائها ظماه حتى ينقع فيعاف ، فمرت به الايام – والهفتاه – دون ارتواء .

ثم سكتت فجاة ، فنظر يزيد لاخيه في تطلع ، وقال : هذا والله ما كان دون تزيد وادعاء !! وشاهد مسلمة ما يرتسم من ملامح حزينة على وجه سعدة ، فطلب اليها ان تذهب فتستريح !!

خلا الامير الى الخليفة .. وقال له في حزم صريح : انت لست ملكا لنفسك يا يزيد ، بل انت ملك للدولة التي تملك ، والاسرة التي فوضت اليك رئاستها ، ولئن تمادى بك الشأن على ما ارى لتزلزلن بعرشك القوائم الثابتة ، ليتطلعن الى مكانك من يرى نفسه اولى منك بالسلطان ! وانت لا تجهل ما يتهددنا من الثوائر بالكوفة وخراسان ، وان شائعة تشيع في الامصار عن احتجابك عن المسجد يوم الجمعة ، وانقطاعك الى قينة متهتكة ، لكافية وحدها ان تخرج حولك الصدور ، وتسل السيوف من الاغماد . .

قال يزيد في حسرة المرتبك اللهيف : وماذا اصنع يا اخي ! وانا لا استطيع السلوان وقد حاولته مرات فبؤت بالخذلان !

فصاح مسلمة كمن يتعجب لامر مشين !! يا سبحان الله ! ثم كتم غيظه وقال : كن رجلا جديرا بالملك يا امير المؤمنين ، وابدأ بامرك فاذهب الى المسجد من الغد ، وانقطع عن صاحبتك فلا تخلو اليها غير ساعة او ساعتين في اليوم ، اذا ضعفت : ثم خذ نفسك بالحزم والتماسك ، فاذا مرت الايام على تغاضيك وتصبرك ، استحال التطبع الى طبع ، فتذوق برد السلوان .

قال يزيد في حيرة : ساحاول كل شيء وليتني استطيع .

* * *

انصرف مسلمة من القصر ، وخلا يزيد الى نفسه فلم يتصل باحد ، ولم يسرع الى (حبابة) كما توقعت ان يجيء ، فادركت بفطنتها الحصيفة ان الجلسة كانت تدور حولها ، وان استدعاء سعدة على عجل ورجوعها بعد فترة ما كان لشأن من شئون الملك ، ولكنه لامر القصر وحده ، وماذا في القصر من شؤون غير امرها مع يزيد !! فاغضت على غيظ مبرح ، واختلج في صدرها من الهواجس ما شغل بالها شغلا شديدا ، ولم تشأ ان تترامى على قدمي سيدها متوسلة متذللة ، فتريق كبرياء الجمال ، وتهدر جلال الفتنة ! بل امسكت على ما بها من الاشجان ، ومضى اليوم ولم تر وجه امير المؤمنين ثم اصبح صباح الجمعة ، فرات من اصطفاف الحراس ، وتهيئة الجند ما علمت به ذهاب الخليفة الى المسجد الاموي ! فاستحال شكلها الى يقين اكيد ، وثبت لديها ان النصيحة العاقلة وجهت اليه بالاقلاع عن اللهو ، والانصراف الى المهام ، فاكتأبت نفسها اكتئابااذاب قلبها المصهور ، وفي لحظة من لحظات ضعفها اليائس تركت ثباتها المتكبر ، واخذت عودها ، وتقدمت الى حجرة الخليفة وقد تهيأ للخروج بموكب الجمعة الى المسجد ، فغنت في نغم حزين وترجيع شجي :

ألا لا تلمه اليوم ان يتبلدا	فقد غلب المحزون ان يتجلدا
اذا انت لم تعشق ولم تدر ما الهوى	فكن حجرا يابس الصخر جلمدا

فاضطرب يزيد اذ سمع الصوت الساحر ، ونظر فراى وجه الغانية العاتبة جذابا يستميل اليه كل ناظر ! ولج في محياها الغاضب ثورة زادت سحره فوشته بظلال فاتنة من الروعة والحسن ! واخذ ترجيعها الآسر بمجامع قلبه ، فترنح كالمتخاذل وثبت في مكانه لا يريم ، ثم صاح في غضب : صدقت يا حبابة ، قبح الله لائمي فيك ! يا غلام ، مر مسلمة اخي فليصل بالناس ، ثم نهض الى معبودته فاخذها بين احضانه وتقابلت دموعهما في شغف لهيف ! وصل النبأ الى مسلمة ، فتوجه كئيبا محزونا الى المسجد ، ورجع بعد الصلاة حائرا قلقا يتململ من الضيق! ولم يستطع البقاء في بيته فحملته قدماه ثانية الى قصر الخلافة فاغفل لقاء يزيد ، اذ لم يجد فائدة عملية في محادثته ، وطلب الاذن على سعدة ، فاخذت حشمتها الرزينة ، وتوجهت اليه في ادب مهذب فقال في ابتسام لقد ضاعت النصيحة سدى يا اختاه ، وضل صوابي في امر يزيد ، اذ تقول عليه الناس بما لا اطيق ! ولاكت احاديثه الافواه .

فقالت سعدة في غيظ : لقد توقعت ذلك يا سيدي ، فهيهات ان يلتفت اخوك الى واجب او يعتصم برشاد !

فاطرق مسلمة ثم قال وماذا نصنع الان ؟ ليست المسألة من شأن اخي وحده ولكنها من شئون الناس !

فنظرت سعدة كالحائرة ثم قالت : لقد فكرت في المأساة ليالي طويلة ، حتى جافاني النوم فكنت اصل المساء بالصباح على غير رقاد ، ثم اعتزمت امرا وسانفذه لانظر ما يكون !

فرفع مسلمة راسه مهتما وقال في حزم : ابيني ما عزمت عليه لنتبادل المشورة فيسهل الانقاذ ! فردت سعدة في انفعال : لا اكتم عنك اني جد ناقمة على (حبابة) ولا بد من ازعاجها في مشاعرها لتذوق بعض ما اكابد من

وبلات ! وسواء رفضت يا سيدي ام قبلت ، فسابعث الى المدينة لاشتري سلامة القس سيدة الغناء هناك ، ولها جمال ودلال ! ثم اهديها الى يزيد فتأخذ من قلبه بعض ما تشغله حبابة من فراغ كبير !

فابتسم مسلمة لما ادرك من كيد النساء . وقال في هدوء : ولكنك تطفئين النار بنار مماثلة ، كمن يداوي شارب الخمر بالخمر ! وانا اريد ان اطفىء النار بماء بارد فيحيلها الى رماد تذروه الريح !

فردت سعدة في اسف : لن تجد السبيل الى الماء ، وقد حاولته فتعذر . . .

قال مسلمة : لست موافقا على ما تقولين فابحثي عن سلاح جديد .

فصاحت الزوجة في غضب مكتوم : اصارحك اني بعثت فعلا بمن يشتري سلامة من المدينة ويأتي بها الى قصر امير المؤمنين ، وقد افهمت والي المدينة : ان هذه رغبة يزيد نفسه ، ولا شك انه سيبادر بالتنفيذ !

فدق مسلمة كفا بكف ، ثم قال في تساؤل : ومن ادراك ان سلامة هذه تفوق صبابة في روعة الغناء وسحر الجمال؟

فأجابت سعدة : لقد علمت انها فتنت جميع الناس بالمدينة ، على كثرة من بها من ذوات الصباحة والغناء — حتى ان الشيخ الوقور عبد الرحمن بن ابي عمار المشهور بالقس لورعه ونسكه قد ترك تسبيحه وهام في محاسنها الفاتنة ، فنظم ارق الغزل وابدع الابيات !!

ثم سكتت لحظة واستطردت تقول : كما علمت ان سلامة اديبة شاعرة تعرف اخبار العرب وتنظم سواحر القول ؛ وتحفظ طرائف التاريخ وتلم بالانساب فاذا حدثت امير المؤمنين وشاهد من حصافتها وعلمها ما شاهد ! فستشغله كثيرا عن صاحبته الجاهلة فتعرف لوعة الغيرة وثورة الاشجان .

قال مسلمة في عجب لقد بالغت يا سعدة في امر سلامة كما اظن ، انما ارى من النساء من تخصصت في الشعر والانساب والتاريخ !! ماذا بقي اذن امامها غير الفقه وتفسير القرآن والحديث !

فأجابت سعدة متعجلة !! نسيت ان اقول انها الت الماما جديا بالفقه والتفسير والحديث فقهقه مسلمة ساخرا وقال: اظنك تعلمين ان غناء الجارية وفقه القرآن لا يجتمعان !!

فردت سعدة في تأكيد : ان عثمان بن حيان والي المدينة قد اعتزم مرة ان يطهرها من طوائف المغنيين والمغنيات ! فاحتال ابن عتيق حتى جمعه بسلامة ، وخاض معها في شجون من الفقه والسيرة والحديث فبهرته بفهمها الدقيق وقال : لن اخرج من المدينة عالمة فقيهة !! فقال ابن عتيق منتهزا رضاه عنها ! « اذن فاترك الباقيات كيلا يقول الناس : ان الوالي احب سلامة القس !! فبادر بالاذعان وترك الجميع فأطرق مسلمة قليلا ثم قال في غضب : اجاءك ذلك كله عن المدينة يا ابنة عبد الله مع نزوح الدار ! ؟

فقالت سعدة ولم لا يأتني كل شيء عن المدينة وبها اهلي وفي ملاعبها البهجة ترعرع صباي وتنسمت اريج الحياة !!

فتأوه مسلمة تأوها يدل على همه المتماوج ! وقال في اسف مبرح : لقد عالجت المسألة من زاوية الغيرة وحدها يا سعدة ! ولعل الله يوفقني الى علاجها من طريقها الصحيح فاستاصل الخطر على امير المؤمنين !

* * *

وشهد قصر الخلافة بعد ايام مطربتين بارعتين تجلسان في ردهته الفسيحة احداهما عن يمين يزيد والاخرى عن يساره !! وكانت حبابة اجمل وجها وابهى طلعة ، وكانت سلامة اشهى حديثا واوسع معرفة واخف سحرا !! وكأن اجتماعها معا قد كمل نقصا كبيرا كان يزيد يلتمس تمامه حتى عثر عليه !! فزاد انصرافه الى صاحبتيه ، وانس بهما انسا فتح امامه مباهج الامل ومهد دونه طرق النشوة والامتاع ، وانتظرت سعدة ان تشب نيران الغيرة بين الجاريتين المتنافستين على قلب امير المؤمنين ، فلم يصدق ظنها فيما توقعته !! فقد كانت حبابة تجد من انس يزيد ما انساها مرارة المنافسة والتزاحم ! وكانت سلامة تعرف انها طارئة مقتحمة فأفسحت من صدرها واغضت عما تندبه صاحبتها من تعريض يصل حينا ما الى تصريح بغيض ! وكأنها علمت ما يضمر يزيد لحبابة من هوى صادق فلم تشأ ان تكدر الصفو بنزاع او خصام !! ورات حبابة حلم صاحبتها وسعة صدرها وجمال صفحها ، فأنست اليها بعد نفار ، واطمأنت الى زمالتها المحتومة !! لا سيما وهي تعرف ان في نزاعهما ما يحرج صدر امير المؤمنين وذلك صعب كريه ! ومرت الليالي سريعة وكلتاهما يأخذ من اسباب الترف ووسائل البهجة ، بأشهى نصيب واوفاه ، حتى شغلتا يزيد عن كل شيء فأصبح منهما في سكر لا يضيق وكأن القدر آراد ان يضع حدا لهذا العبث المستطيل ، فقد امتد به التهور امتدادا احرج الاقارب واقر عيون الشامتين ! فوقعت الكارثة الداهية اذ جلست حبابة تأكل عنقودا من العنب فشرقت بحبة كبيرة كانت بها منيتها العاجلة !! ونظر الخليفة فاذا كنزه الثمين يفلت بغتة من يديه ، فطار صوابه وابدى من الهلع ما جاوز كل حد ! حتى امربعدم دفنها ! وظلت في قصر الخلافة مسجاة على سرير الموت ثلاثة ايام !! وصاح ندماؤه في اسف «لقد صارت جيفة بين يديك يا امير المؤمنين» فاذن بدفنها والذفرات تتاجج في صدره وعاش بعدها اياما معدودات ثم قسا عليه الحزن فأسلم انفاسه متحسرا لهيفا وفارق الحياة .

اما سلامة فقد قدر لها ان تبكيه بدموعها الساخنة كما قدرعليه ان يبكي صاحبتها الراحلة!! والدنياغرائب ومفاجآت!!

الفيوم — محمد رجب البيومي


فتحي الابياري

محمود تيمور بين الواقعية والمجمعية

بقلم فتحي الابياري

* * *

بدات هذه القصة في يوم ٥ ابريل ١٩٤٧ . وقد اجتمع اعضاء مجمع الخالدين بدار الجمعية الجغرافية ، للاحتفال بعضو جديد .. انه محمود تيمور .

ووقف محمد فريد ابو حديد ، مقرر المجمع ، والقى البحث التقليدي لتقديم العضو الجديد الذي سينضم الى مجمع الخالدين ... فقال :

« اختار المجمع اللغوي في هذا العام من بين المبرزين في القصة ، الاستاذ الكبير محمود تيمور ، فأهداه جائزة القصة اشارة منه الى هذا المعنى ، ثم اعترافا بما للاستاذ الكبير من اثر محمود في فن القصة في ادبنا الحديث .

فقد الف الاستاذ محمود تيمور ، نحو خمسة وعشرين كتابا في الفن القصصي ، بعضها مجموعات من قصص قصيرة ، يبلغ عددها اثنتي عشرة مجموعة ، وبعضها من قصص تمثيلية ويبلغ عددها عشرا .

وقال « ... واذا كان الاستاذ تيمور قد اتجه في بعض قصصه نحو مجاراة الكتابة باللغة العربيـة الدارجـة ، فالظاهر انه قد وجد العربية الصحيحة اولى بفنه ، فنحا اخيرا في اسلوبه منحى يجمع الصحة والسلامة والسهولة. ولعل هذا اعتراف منه بما تنتظره اللغة العربية من فنه».

ثم وقف طه حسين وقال « .. وسبقت انت الى شيء لا اعرف ان احدا شاركك فيه في الشرق العربي كله الى الان . واذا ذهب احد مذهبك او جاء احد فيما بعد بخير مما جئت به ، فلن يستطيع ان يتفوق عليك ، لانك فتحت له الباب ، ومهدت له الطريق ، ويسرت له السعي ، واتحت له ان ينتج وان يمتاز وان يتفوق . هذا الذي تفوقت فيه وامتزت ، وسجلت به لنفسك خلودا فـي تاريخ الادب العربي لا سبيل الى ان يمحى ، هو القصص على مذهبه الحديث في العالم الغربي . وانك لتوفي حقك اذا قيل انك اديب عالمي بأدق معاني الكلمة واوسعها . ولا اكاد اصدق ان كاتبا مصريا مهما يكن شأنه قـد وصل الى الجماهير المثقفة وغير المثقفة كما وصلت انت اليها .

وعندئذ قرر المجمع تتويج جميع الانتاج القصصي باللغة الفصحى ، لمحمود تيمور . ورأى الازهار تحوطه في كل مكان . وتركزت عليه الاضواء . واصبح عليه ان يؤدي رسالته المجمعية ... اللغة العربية . وعادت ذاكرة تيمور الى الوراء الى انتاجه البدائي ، الذي كتبه بحرارة وصدق واحساس . ان هذا الانتاج والشخصيات الحبيبة الـى نفسه ، قد كتبت باللغة العربية المبسطة . ان المجمع لـم يتوج ذلك الانتاج .. وهو الحاج شلبي ، والشيخ نعيم المزواج ، وعفريت أم خليل ، وابو علي عامل ارتيست ، والعودة ، والى الجنة . وصابحة ، والاطلال ، والشيخ عفا الله .

عز على تيمور ان يرى هذه القصص ، لا تتوج ، لانها كتبت بأسلوب بسيط واقعي . فأسرع اليها ، وامسـك بالقلم المجمعي ، وكتب سطورها من جديد . وكانت بداية المشكلة التي سنعالجها الان بالنقد والتحليل .

بين الاطلال ... وشباب وغانيات

ففي عام ١٩٣٤ اصدر محمود تيمور قصة «الاطلال» . وهي تدور حول الشاب سامي الذي نشأ يتيما ، وعاش مع اخيه وزوجته في منزل العائلة الكبـير بالحمزاوي . وكبر سامي ودخل المدرسة . وتعرف على فتحية ابنة ضابط المدرسة . وكان يذهب اليها هو ورفقاؤه يلعبون معها ومع حمارها . ونشأت الفة بين سامي وفتحية .. كانت فاترة في اول الامر ولكن كثرة زيارات فتحية لمنزل سامي مع جدتها الست هاجر ، اشعلت نار الحب في قلبيهما.

اما الفتاة تهاني ، وهي من نفس الوسط الذي يعيشه سامي ، كانت تحضر الى المنزل في صحبة جدتها اجلال هانم ، لزيارة زوجة اخيه . وكان سامي يلعب مع تهاني . ولكنه كان بين نارين . الفتاة الارستقراطية تهاني ذات الصلف والزهو . وفتحية الفتاة الدافئة البسيطة ذات النزعة الشعبية المتواضعة الطيبة .

وازداد حبه لفتحية عنفا ، ولكنه لم يجسر على ان يفعل معها شيئا ، لولا ان « أم خضير » الخادمة ، نبهته قائلة :
ـــ اذا جاءتك المرة التالية، فاقفل الباب بدون ان تشعرها

بذلك ، ثم ادع ان المفتاح قد ضاع ... لا تضيع الفرصة يا عبيط .

وحاول سامي ان يرسم على وجهه علامات الاشمئزاز من هذه الكلمات العارية ، ولكن المراة العجوز تابعت كلامها في وقاحة ...

ـ البنت ايضا خيبة لا تحسن الدلال .. لما كانت انا في سنها .. كانت البهوات والبشاوات يتزاحمون علي.. ويتقاتلون على قبلة مني .

وقامت «أم خضير» بتقريب المسافة بين فتحية وسامي. فأصبحا عاشقين . وعادت تهاني من استانبول وقد كبرت وازدادت جمالا وحسنا . وعندئذ رآها الاخ الكبير لسامي. فتزوجها في السر الذي ما لبث ان انكشف ، ومع ذلك لم تستطع زوجته الاولى ان تتكلم .

وتورط سامي في علاقة جنسية مع فتحية . واكتشفت زوجة اخيه هذه العلاقة التي نشأت وترعرعت في المنزل. فأخبرت زوجها ... الذي طرد فتحية من المنزل وامر بتزويجها من شيخ الخفر العجوز في الضيعة . وثار سامي ، واعلن تصميمه على ان يتزوج بفتحية . ولكن اخاه حذره من هذا العمل .

وعندئذ هرع سامي الى بيت « الحاجة فاطمة » ليغرق نفسه في تيار الملذات والغواني والخمر . وكان طيف « فتحية » يحوم في مخيلته يسائله ... « ماذا صنعت من اجلها ؟ » فتنطوي جوانحه على حسرة واغتمام . ويستشعر احتقارا لنفسه ، وازراء بما قارف من اثام .

ودارت الايام ، واستطاع سامي ان يلتقي بتهاني في خفية من وراء اخيه . وارتشف الاثنان كأس الهوى حتى الثمالة . وكان في بعض الاحيان يبيت مختبئا في بيت تهاني ويسمع خطوات اخيه . ولكنه كان يشعر باشمئزاز واحتقار من تهاني لانها تقوم بتمثيل هذه الادوار عليه وعلى اخيه الذي هو زوجها.

وذات صباح فوجيء بموت اخيه في منزلهم الكبير . واحس احساسا اليما بطعنة قاسية تدمي قلبه . لان اخاه قد مات ولم يعترف له سامي بالاثم الذي ارتكبه في حقه مع تهاني . ولم يذهب اليها رغم ملاحقتها له . وماتت زوجة اخيه . فأصبح وحيدا في القصر الكبير . وحاول سامي ان يتناسى تلك الفواجع التي انهالت عليه مرة واحدة . فذهب الى بيت « الحاجة فاطمة » ليغرق نفسه في بحر النسيان . وهناك وقعت عيناه على مفاجأة . لقد رأى امامه تهاني ، تبيع جسدها مع بقية الغواني . فترك لها بعض المال ، ولم يستطع ان يلمسها . فقد احس انها اصبحت شيئا عفنا . وترك بيت « الحاجة فاطمة » الى غير رجعة .

ورأى سامي زملاء الطفولة يكونون اسرا . وهو ما زال وحيدا . وتذكر فتحية . فذهب على الفور الى الضيعة ، للبحث عنها . وهناك علم ان فتحية قد ماتت . وعثر على ابنه الصغير فتحي ، فأخذه بين ذراعيه واحتضنته في شغف وبدأ يشعر بالطمانينة الكبيرة تغمره ، واخذت الحياة تتفتح امامه من جديد . ودب في نفسه نشاط غريب . واحس كأن يدا قوية ترفعه من على اطلال حياته القديمة وتهزه في الفضاء .. تنفض عنه ماهو عالق به من بقايا خرائبه.

* * *

وفي عام ١٩٥١ ، اعاد تيمور كتابة هذه القصة باسم « شباب وغانيات » . وتغيرت موسيقى الكلمات الى سيمفونية مجمعية . فقد بدأت القصة في « الاطلال » هكذا ... «نشأت في هذه الدنيا لم ار لي ابا ولا اما ..» وفي « شباب وغانيات » .. « نشأت في اعقاب القرن الماضي ، القرن التاسع عشر ، يتيما لا ارى لي ابا ولا اما » وفي وصفه لحاضنته « مسرات » (١) قال ... « وكانت لي دادة اسمها مسرات ، غليظة الجسم مترهلة ، كنت احبها . ولكنني كثيرا ما كنت اعاكسها . وكانت تحبني ولا تجسر على ضربي . وعندما يشتد تضايقها مني وتطغي عليها حماقتها ، كانت تنهال على وجهها ضربا وتقريصا . »

واعاد تيمور هذا الوصف قائلا .. « وكانت لي حاضنة حبيبة الي اسمها مسرات ، نوبية المنبت ، غليظة الجسم في ترهل ، شد ما اعاكسها فلا يهون عليها ان تؤذيني لحبها اياي ، وحين يبلغ منها الضيق كل مبلغ ، تهيج حماقتها الجامحة ، فتنحي على وجهها ضربا وشدا » . (٢)

وهكذا استمر تيمور في بناء الاطلال من جديد ، وباسلوب مجمعي رصين . اما الالفاظ التي اقتربت من العامية فقد محاها ، واستبدلها بكلمات مجمعية اصيلة . مثل «دادة»، فأصبحت « حاضنة » ، « نافذة . كوة » ، « تمسد قدمي ـ تدلك قدمي » ، « فسحة . الردهة » ، «مندرة. منظرة»، « الكنبة . المتكأ » . « الشلتة . حشية » ، « الردنجوت . لبوس اسود » ، « فيتون . مركب » ، « الكيلار . مخزن المؤونة » ..

اما حبكة القصة ، وتسلسل الاحداث ، فقد حافظ تيمور عليها ولم يحدث اي تغيير الا في نهاية القصة . ففي نهاية « الاطلال » حين ذهب سامي الى الريف ، ليبحث عن ابنته .. ووجده . وهنا صور تيمور هذا المشهد الاخير بالفاظ موسيقية صادقة ، لا تغلفها غلالات المجمع التي تشيع البرودة في الالفاظ في بعض الاحيان . قال تيمور :

« ... فرفع الطفل رأسه ونظر الي مستريبا في فضول . فقلت له :

---

(١) الاطلال ص ٣ . (٢) شباب وغانيات ص ٦ . (٣) الاطلال ص ٩٠-٩١ . (٤) أبو علي عامل ارتيست ١٩٣٤ او أبو علي الفنان « سلسلة اقرأ » ١٣٦ عام ١٩٥٤ . (٥) أبو علي عامل ارتيست ١٢٩ . (٦) مجلة الرسالة الجديدة .. مايو ١٩٥٤ ـ العدد الثاني . (٧) دار هنا الحديث بيني وبين الاستاذ محمود تيمور . (٨) واقرأ تحليلا للقصة في كتاب « محمود تيمور وفن الاقصوصة العربية » للمؤلف ص ٨٥ .

ــ لقد احضرت لك لعبا وحلوى .. انظر .

واخرجت له ساعتي ، واريتها له . فسار نحوي بخطا بطيئة ، ولما وصل عندي ، مد يده وقبض على الساعة وجعل يتسمع دقاتها مبتسما ، ثم قرقع بالضحك .. وكانت ابتسامته الساذجة تحمل الي من الماضي ذكريات شهية . وكنت كلما احدقت في عيونه الصغيرة اعترتني نشوة غريبة واخذته بين ذراعي ، وجعلت احتضنه في شغف . ثم وسدت راسه صدري ، وجعلت الاطفه على شعره ...

ومرت بي برهة طويلة ، وانا غارق في احلامي وبدات اشعر بالطمأنينة العظيمة تغمرني ، واخذت الحياة تتفتح امامي من جديد ، ودب في نفسي نشاط غريب ، واحسست كأن يدا قوية ترفعني من على اطلال حياتي القديمة وتهزني في الفضاء . تنفض عني ما هي عالق بي من بقايا خرائبي . وجعلت اتمتم في هدوء ..

ــ اسمع يا فتحي .. سوف نعيش سويا من الان فصاعدا ، في منزل صغير جميل ، وسوف نحيا حياة كلها سعادة ونشاط .. وسوف اراك امامي في المستقبل رجلا متعلما تعمل في الحياة بشرف وامانة ... (٣)

وبعد سبعة عشر عاما ، اعاد تيمور كتابة هذه الخاتمة قائلا : « فالتفت الطفل ينظر الي مستريبا بي ، وفي عينيه استطلاع وفضول . فقلت له :

ــ لقد احضرت لك اشياء لطيفة .. انظر ..

واخرجت له ساعتي اريه اياها ، فانجذب نحوي واهن الخطا ، ومد يده الى الساعة يقبلها ويتفحصها ، فأعنته على ان يضعها على اذنه ليسمع دقاتها ، فأشرقت اساريره ، وفرقعت ضحكاته . وجعلت اتأمل قسمات وجهه ، فكأني كنت اقرا فيها سطورا من ذكريات حافلة . وكنت كلما حدقت في عينيه الصغيرتين ، عرتني نشوة فأخذته بين ذراعي ، وطبعت على خده قبلة حانية ، وسدت راسه صدري ، وجعلت اداعب شعره .

ومرت بي هنيهة ، وانا هائم في احلام ، وبدات استشعر طمأنينة وسكينة ، واذا الدنيا من حولي كأنما قد انجاب عنها قتامها ، واخذت تشرق وتبتسم ، لكأني كنت من حياتي في متاهة اضرب في وعثائها على غير هدى ، واذا انا بعد لأي ، يتوضح لي طريق الخلاص ، وتراءى لي اني اسير في ذلك الطريق آخذا بيد ولدي ، مستقيم الخطو ، يحدوني امل بسّام ، ويشيع في نفسي امن وسلام.»

* * *

وكانت قصة « الاطلال » في خمسة عشر فصلا . اما « شباب وغانيات » فقد كتبها تيمور في ثلاثة وعشرين فصلا . وبذلك اضاف ثمانية فصول جديدة على قصة « الاطلال » . ولم تكن الفصول المضافة وحدة قائمة . ولكنها كانت اضافات داخل الفصول القديمة . او اسهاب وتطويل في نقطة صغيرة ، رأى تيمور ان يعيد كتابتها على ذلك النحو .

والذي لاحظته ان اسلوب « الاطلال » كان جياشا بالعواطف العارمة والأحاسيس والمشاعر الحارة . احاسيس الشباب الدافئة . اما اسلوب «شباب وغانيات» فكان منمقا ، فيه آثار الصنعة البارعة ، وتصوير الحدث بدقة ومهارة الفنان الموهوب . على عكس ما كان يبدو في « الاطلال » من عثرات بدائية . ولكنها كانت صادرة من القلب ؟ اما « شباب وغانيات » ففيها آثار العقل .

ان العبارة التي كتبها تيمور في « الاطلال » في نهاية القصة ... « واحسست كأن يدا قوية ترفعني من على اطلال حياتي القديمة وتهزني في الفضاء تنفض عني ما هو عالق بي من بقايا خرائبي ... » . هذه العبارة صورة صادقة للاحساس الداخلي الذي انتاب سامي عندما احتضن ابنه ، ولمسة فنية اكدت ان تيمور كان قصاصا موهوبا منذ محاولاته الاولى في القصة .

وجاء تيمور ليعيد هذه العبارة في «شباب وغانيات» فكتبها هكذا : « لكأني كنت من حياتي في متاهة اضرب في وعثائها على غير هدى ، واذا انا بعد لأي يتوضح لي طريق الخلاص .. » وواضح ان الاثار المجمعية اللغوية منطبعة في العبارة بعد تجديدها ، وان كانت فقدت رونق الصورة الخيالية الاولى ، التي عبرت عن عنوان القصة «الاطلال» ولكنه في « شباب وغانيات » شبه حياته بصحراء جرداء لا نهاية لها ، ولا امل لمن يخترق اهوالها ومخاطرها .

وكانت هذه المحاولة هي اول محاولة قام بها اديب عربي ، لتجديد بعض انتاجه واعادة كتابته . وكان تيمور الرائد الاول لهذه المحاولة . ولم تسترع الانتباه اول الامر. لذلك شرع قلمه ليغير من الوان « ابو علي عامل ارتيست » التي طبعها ١٩٣٤ ، الى الوان مجمعية هي : « ابو علي الفنان » عام ١٩٥٤ . (٤) وهنا فقط اهتزت الاوساط الادبية . هاجت وماجت واعلنت استنكارها لهذه المحاولة الجريئة التي قام بها تيمور . وقبل ان نتحدث عن اراء الكتاب في هذه المحاولة ، سننقل الصورة الاولى لـ « ابو علي عامل ارتيست » قبل تغييرها .

ابو علي ارتيست وفنان

وقصة « ابو علي عامل ارتيست » هي قصة الشاب حسن عبد الكريم الذي عاش مع عمه وعمته بعد ان توفي والداه . فاشتغل في حانوت عمه البدال بعد فشله في الحصول على الابتدائية . وكانت حياة الفتى هادئة كالبركة . لولا ان صديقه عبد الواحد جذبه الى رؤية احدى المسرحيات بعد اقناع عم حسن بأن التمثيل اشبه بدور العلم يتلقى فيها الجمهور الحكمة والفضائل . وشاهد حسن المسرحية . وعندئذ اصيب بلوثة فنية . ظلت تنمو في صدره وقلبه ، واستحوذت على تفكيره وعقله . فكان يتسلل بالليل ليشاهد الحفلات التمثيلية . وانطبع

الانقباض والنفور على تصرفاته . واعتقد عمه انه مريض . وكان حسن يخفي كتابا صغيرا في جيبه ، يخرجه ليحفظ منه كلما سنحت الفرصة . وفاجأ صديقه عبد الحميد بأنه قد حفظ رواية «الممثل» التي شاهدها معه اول مرة. واتاح عبد الحميد الفرصة لابي علي . واشترك ضمن افراد « الكومبارس » في تمثيل رواية « الممثل » .

وتطورت نفسية حسن تطورا سريعا . فكبرت هواجسه ، وكثرت احلامه ، فكان يرى في نومه انه يمثل دور « دافيد جرك » بطل رواية « الممثل » امام مئات من المتفرجين ، يصفقون له ويهللون في حماس كبير . واصبح يقف في حانوت البدال متأففا ، لانه يبيع الجبن والزيتون للزبائن .

وكان يقف الساعات الطوال امام مرآته المكسورة ، ويشد جلد وجهه ويثنيه على بعضه ليعمل على كرمشته ، زاعما ان وفرة التجاعيد في وجه الممثل دليل على عبقريته. وتملكته شهوة التمثيل ، فكان يحبس نفسه في مخزن الحانوت المظلم في الاوقات التي تقل فيها حركة البيع . وينطلق يمثل حتى ينهكه التعب ، ويخرج يستقبل الزبائن بوجه محتقن يتصبب عرقا .

وتعرف حسن الى كثير من الادباء والممثلين وكانوا يطلبون منه ان يؤدي بعض الادوار التي يحبها ليتسامروا به ، دون ان يشعر بذلك ، وذات يوم قال لصديقه :

ــ اسمع يا عبد الواحد .. الا ترى انه يجدر بك ان تلقبني من الان فصاعدا .. بلقب استاذ .. بدلا من قولك يا عزيزي ..

فأجابه عبد الواحد في حيرة واندهاش :

ــ حسنا .. يا استاذ .

ــ اسمع يا عبد الواحد .. لقد انتويت القيام بعمل جدي في عالم التمثيل .. فهل انت على استعداد لمعونتي؟

ــ ولكن عن أي عمل تتكلم ؟

ــ هذا سري يا عبد الواحد .. سأطلعك عليه في الغد .. والان انا مضطر الى تركك . ان مشاغلي كبيرة هذا المساء . سأراك غدا في قهوة الفن .

وذهب الى عمه ليخبره بأنه سيتجه الى الفن وقال له :

ــ يا عمي .. انا ارتيست ... والله ارتيست .

ــ وما هو الارتيست يا حسن ؟

وجد حسن عمه في حالة تسمح له ان يتفاهم معه فقال:

ــ الارتيست يا عمي .. هو الممثل الفنان ... هو الشخص العبقري .

فلم يكد يتم جملته حتى بصق الشيخ مبروك في وجهه محتدا وقال :

ــ لعنة الله عليك وعلى ايامك .. أتتجاسر ان تقول امامي بانك مشخصاتي ...

ــ ما هذا الكلام يا عمي ... هذه اهانة كبيرة ..

ــ اذن ما هو المشخصاتي يا سي حسن ؟ .. أليس هو الشخص الذي يصبغ وجهه بالاحمر والابيض.. ويكحل عينيه .. ويلبس البنطلونات الضيقة ، ويمشي في التراترو يتعوج ويرقص ! (٥)

وطرق حسن ابواب المسارح فقبلته فرقة من الفرق الهزلية ضمن افرادها . ولكنه كان ينقد زملاءه الممثلين . ولا يعجبه تمثيل الروايات . وكانت كل فرقة تطرده لانه يتدخل في ادارة المسرح . ويصلح للموظفين . واصبح بائسا شريدا . لولا ان انقذه صديقه عبد الواحد واعاده الى عمه ، بعد ان همس في اذنه قائلا :

ــ اذا مات الشيخ مبروك وهو غاضب عليك فلن ترث منه مليما واحدا .. لقد عول على التنازل عن كل ما يمتلكه الى زوجته .. اما اذا مات وهو راضي عنك فستكون انت وريثه الاكبر ..

ومات عمه وبدأ الناس يفدون على المنزل ، وحاول حسن ان يستدر دموعه ليستقبل بها المدعوين فلم تطاوعه عيناه. ففافل الجمع وذهب الى حجرته ووقف امام مرآته حانقا ثم ثار على نفسه ، وجعل يقرص وجهه ويفركش شعره ويدعك عينيه بشدة ، ولمح غير بعيد عنه حق الفازلين فاختطفه ، وجعل يدعك خديه وعينيه . ولما انتهى وقف يتأمل نفسه ، ثم تهيأ للخروج وهو على هيئة اوديب في الفصل الاخير بعد ان طعن عينيه وشوه وجهه . وفتح الباب ، وهو يصرخ بأعلى صوته :

ــ واه حسرتاه عليك يا عمي .. يا من كنت اعز من والدي ..

واخذ يصرخ ويشد شعره ، ويحاول ان يقبل جثة عمه ولما حاول ، ودخل الحجرة وراى الجثة لم تطاوعه ساقاه على الوقوف ، فخر على الارض وحملوه الى الخارج .

وحل محل عمه في الحانوت . واهمل حلاقة لحيته . وارتدى عمامة كبيرة مهيبة ، وجبة فضفاضة زرقاء ، يشرق تحتها قفطان مخطط ذو لون اصفر جميل ، ومركوب احمر يلمع في وهج الشمس ، كالجمرة المتقدة . وفي يده مسبحة طويلة غليظة الحبات يسبح عليها في خشوع .

واستولى عليه صلاح عجيب ، فأكثر من حفلات الاذكار ومن زيارته لاضرحة الاولياء والمساجد . ثم انتابته لوثة جعلته يقف في المسجد ويقول للناس : « انا الذي اختارني الله لهدايتكم .. انا الذي لا انطق الا بالحق . فمن اتبعني فقد اتبع الله » .

فضربه الناس وعندئذ قاطع الجوامع ، وانقطع عن زيارة الفقهاء وابطل تدريجيا حفلات الذكر . واتخذ طريقا اخر ، وباع حانوته ومنزله . وبدأ يشيد مسرحا كبيرا . لانه راى حلما عجيبا . رأى نفسه وهو يهدم حانوته ومنزله ويشيد صرحا عظيما ويخرج له قيس بن الملوح « مجنون ليلى » من بين الانقاض ويعانقه ويقول له : « تقدم الى الامام ولا تجزع » .

وفي ليلة افتتاح المسرح . ثار الجمهور على « ابو علي »

وصاحوا هاتفين « حسن ابو علي سرق المعزة » . اذ كانوا لا يريدون ان يشاهدوا التمثيل ، وانما جاءوا ليسمعوا اغاني « الست بدرية » . ونشبت معركة عنيفة احترق فيها المسرح ، وخسر حسن كل ثروته .

واعتكف « ابو علي » في حجرة حقيرة . وزاره عبد الواحد وهو في ساعته الاخيرة . واستمع الى اخر امنيات « ابو علي » وهو يحتضر .. قال له :

ــ لدي مشروع عظيم .. اريد ان اسره اليك ولكن .. حذار من اذاعته .. ان حسادي كثيرون .. وواقفون لي بالمرصاد .

وقال له عبد الواحد :

ــ لن افشي سرك يا استاذ ..

فابتسم حسن ابتسامة ضئيلة وقال :

ــ ادن رأسك مني ... اجل هكذا .. اسمع اذن .. اريد ان انشيء .. م .. م وسقط راسه على الوسادة ، فحركه عبد الواحد ، فاذا به جثة هامدة !

* * *

كانت هذه هي قصة « ابو علي عامل ارتيست » . وبعد عشرين عاما نقحها تيمور وجودها ... فماذا حدث ؟ .. لم يكن التجويد والتنقيح في عصب القصة او في بنائها الفني ، بل كان في الثوب الذي احاط بالهيكل الفني . وبالاسلوب . فاحكيه وتسلسل الاحداث والوقائع لم يتغير فيها شيء جوهري . اما الاسلوب فقد تغير وتبدل . فبعد ان كان بسيطا اصبح قشيبا محلى بالالفاظ المجمع اللغوية .

فكلمات « البقال » . « الكومبارس » . « المكياج » . « المارة » . « ذقن » . « الفت » . « اللحم » . اصبحت مثلا ... « البدال » . «البطانة» . «التلوين والتشكيل» . « السابلة » . « لحية » . « الثريد واللحم » . وتغيرت بعض الاساليب مثل :

« ولما انتهى الاجتماع خرج حسن وراسه يموج بمختلف الافكار » ص ١٢٥ الاطلال . فأعاد تيمور كتابتها بعد عشرين عاما هكذا .. « فخرج الفتى يعتسف الطريق ، لا يعرف له وجهة ، تمور في راسه الافكار » . واخذ قلبه يدق انفعالا » . كتبها « واشتد وجيب قلبه » . « فقام حسن غاضبا » . اصبحت في الطبعة الجديدة « فانتفش حسن وقد هاج غضبه » . « لم تطاوعه ساقاه على الوقوف » فاعيدت هكذا « ساقاه تميدان به فيخر على الارض » .

وفي : « ابو علي عامل ارتيست » وصف تيمور « ابو علي » بعد وفاة عمه هكذا ص ١٤٤ « ... ولم يمس لحيته وشاربه بأذى ، وكان يراقب نمو لحيته في شغف وانفعال . ولكن ساءه منها ان ظهرت جرداء غير مكتملة ليس عليها مهابة اللحى الجليلة . وجلس يوما مكتئبا وقد ضاق صدره من عناد لحيته .

اما في الطبعة الجديدة فكان الوصف كما يلي « فلما وقف امام المرآة يريد ان يعمل في لحيته الموسى ، لبث مليا يتوسم وجهه ثم ادبر عن المرآة يعفي لحيته وشاربه . لا يتحيف منهما ولا يمسسهما بأذى . وظل يراقب لحيته وهي تربو وفي نفسه شغف بأن يراها قد استدارت على عارضيه، فينانة تزدهر ... وشد ما ساءه ان تظهر ضعيفة النمو متفاوتة المنابت ، بها جوانب جرداء » .

* * *

لقد راينا كيف كان اساوب تيمور بسيطا ، دون أي تعقيد لغوي . اما اسلوبه في : « ابو علي الفنان » فقد انسابت الالفاظ المهجورة في سطور انتاجه الفني بعد دخوله المجمع .

وعندما ظهرت الطبعة المجددة من « ابو علي الفنان » ثار النقاد . بعضهم أثنى على تيمور هذا المجهود . وبعضهم ثار عليه لان انتاج الفنان الاول قد خرج من نطاق ملكيته وهو بنشره واذاعته قد اضحى ملكا للقراء ، فهو لا يملك حتى تبديله ولا تغييره .

الذين أثنوا على هذه المحاولة قالوا : (٦) « أننا نحيي الاستاذ محمود تيمور لهذا الروح الذي املى عليه وهو في الذروة من الشهرة ان يجود فنه فيعيد كتابة قصة اصدرها من جديد ليجود وينقح ويغير في سبيل الكمال .. اما هذا الذي اعاد استاذنا الكبير كتابته فهو : « ابو علي » الذي رفعه تيمور من « عامل » « ارتيست » الى درجة فنان . وان كان التغيير طفيفا والقصة مرتبة نفس الترتيب جملة جملة » .

وكانت حجة الذين ثاروا على هذه النظرية التيمورية الجديدة .. نظرية التجويد والتنقيح ، ان الفنان الخالق يظهر لنا انتاجه على مختلف مراحل حياته ، ولا شك ان هذا الانتاج يتطور بتطور تفكيره وشعوره في تلك المراحل المختلفة . وكل انتاج له انما يعبر عن طبيعته في تلك المرحلة ، ويعكس لنا صورة من نفسه واحاسيسه . وكل مرحلة من مراحل الفنان لها قدرتها على انتاج مخصوص ، وميلها الى اتجاه معين حسب الانفعالات التي تتعرض لها نفس الفنان في تلك المرحلة وحسب تكوينها الداخلي وطريقتها في التفكير والاحساس . واستقبال الاحداث الخارجية المنعكسة عليها . ثم قابليتها لارسالها وقدرتها عليه .

والمسألة ليست نضوجا وتحسينا ، بل هي تغيير في التفكير ، وتبدل في الاحساس . فالفنان قد يكون في شبابه اكثر قدرة على انتاج كل ما يمس القلب ، فهو مفرط في الحساسية ، مرهف في المشاعر ، سريع الالتقاط والانفعال ، سريع التأجج والاشتعال . وهو في كهولته اكثر قدرة على انتاج كل ما يمس العقل فهو مفرط في التروي والاتزان .

وكلا الانتاجين له وزنه وقيمته ، وليس من المعقول ان نطلب من الفنان .. وهو في دور الكهولة ، وقد تبدلت مشاعره ، وتغيرت طريقة تفكيره ، ان يمسك بما انتجه

في شبابه ، ليعيد تجويده وتنقيحه بما يلائم تفكيره الحالي في تلك المرحلة ، ويبدل ويحور ما لا يعجبه وهو في سنه هذا مما كان يعجبه وهو في سنه تلك .

واذا كان كل كاتب او فنان يمسك بنتاجه كلما تقدم به السن ليبدله ويحوره ، فلن نجد لنتاج الفنانين في خاتمة حياتهم الا ما اقروه في شيخوختهم . وما انعكس من نفوسهم ، وهم في اخر مراحلهم ، والحياة ليست كلها شيخوخة . وليست كلها حكمة وعقل من انتاج اخر العمر .

* * *

وعندئذ اصبحت هذه النظرية قضية ادبية . فهل يحق للاديب الفنان ان يعيد كتابة قصة كان قد نشرها منذ زمن بعيد ، ليجودها وينقحها ؟ هل من حقه ان يقول للقراء .. ارجوكم .. انزعوا الصورة الاولى التي انطبعت في اذهانكم عندما قرأتم قصتي لاول مرة .. لانني اعيد كتابتها الان ؟ .. هل يمكن وضع الصورة الجديدة المنقحة لقصته ، في اذهان الذين قراوا القصة واحتفظوا بصورتها الاولى في مخيلاتهم طوال سبعة عشر عاما ؟

ويجيب محمود تيمور عن هذه الاسئلة قائلا : ان الاديب الفنان له الحق في تصليح قصصه واعادتها مرة اخرى اذا لزم الامر . فكثير من قصصي القديم شمله تغيير ملحوظ في المعالجة والتعبير اللغوي . ذلك لان الفنان له الحق في اخراج مؤلفاته القديمة بمظهر يرضى عنه ، ويكون مسايرا لتطوره الحديث . اما الذي يريد ان يكتب عن حياة المؤلف الادبية ، فعليه ان يقرا القديم والجديد ، ويقارن ليستبين على ضوئه مدى تطوره في الكاتب (٧) .

ولذلك عاد تيمور الى قصصه التي نشرها في بواكير حياته الادبية ، في مجموعات « الحاج شلبي » « ابو علي عامل ارتيست » . « الاطلال » . « الشيخ عفا الله » . وانتقى منها بعض القصص ، فنقحه وجوده .

ففي مجموعة « الحاج شلبي » التي نشرها عام ١٩١٤ ، قام تيمور وجدد معظم قصص هذه المجموعة ونشرها في مجموعة « قلب غانية » التي نشرت عام ١٩٥٥ (٨) «فالحاج شلبي» تجدد في صفحة ١٥٦ . وقصة «عفريت أم خليل» تغير عنوانها واصبح « الشجاع » ص ١٦٣ . وقصة « الرجل المريض » اصبحت « رجل مريض » ص ٧٣ . اما قصة « الشيخ نعيم الامام او المزواج » فقد تغير عنوانها الى «شيخ الزاوية» ونشرت في مجموعة «شباب وغانيات» ص ١٤٧ . وتجددت كذلك قصة « حفلة » وقصة « سليم افندي الطالب الاديب» الى «رهان» فيمجموعة «ثائرون» ١٦٧ . وفي مجموعة « ابو علي عامل ارتيست » تجددت قصص « العودة » الى « أم زيان » في مجموعة دنيا جديدة ص ٢١١ . وقصة « صابحة » الى « السارق » في مجموعة زامر الحي .

وفي مجموعة الاطلال تجددت قصص « ابو عرب » الى « دهب » في مجموعة «دنيا جديدة» ص ٢٠٣ . و «الطفل والمصور» في مجموعة قلب غانية ص ٤٣ . وقصة « حلم وانقضى » الى « فاته القطار » في مجموعة « زامر الحي » ص ٧٤ . وجددت كذلك قصة « حسن اغا » في قلب غانية ص ١٣٢ .

اما مجموعة « الشيخ عفا الله » التي نشرها تيمور عام ١٩٣٦ ، فقد جدد قصته « الشيخ عفا الله » الى « زامر الحي » عام ١٩٥٣ ص ٥ . وجدد تيمور اول قصة له وهي « الشيخ جمعة » الى « حارس الجرن » . « وعم متولي » الى « المهدي المنتظر » في مجموعة «دنيا جديدة» ص ٢٣٧ ، ٢٥١ .

* * *

هكذا خلق محمود تيمور هذه النظرية الجديدة، نظرية تجويد وتنقيح الاعمال الادبية الاولى للفنان . وهناك كلمة اخيرة .. وهي .. ان الكلمة في اي عمل فني . انما تعبر عن الزمن . وتحمل في طياتها كل ثقافات واحساسات ومشاعر العصر الذي نبعت منه ، فمن طريق الكلمة نستطيع ان نحدد ملامح العصر الذي وجدت فيه ، ونستطيع ان نعرف الثقافة والذوق وشخصية اهل هذا العصر . فاذا تغيرت الكلمة وتبدل الاسلوب انمحت بذلك بعض اثار العصر الذي كتبت فيه الكلمة . ولذلك فانني احب قراءة « ابو علي عامل ارتيست » و « الشيخ جمعة » و « الاطلال » وغيرها بأسلوبها القديم ... لانها تنقلني الى عصر مضى عن طريق الكلمة ، ولانها كانت صادرة من القلب في حرارة وصدق .

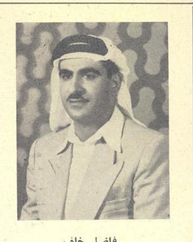
اما هذه النظرية التي ابتدعها تيمور ، فهي درس نقدي لكتابنا الذين يتوهمون ان اعمالهم بدون تنقيح تعتبر من روائع الفن العالمي . فتيمور الكاتب الكبير يعود الى قصصه القديمة ، ينقحها ويجودها ، لتظهر في ثوب يرضى عنه بعد سنين طويلة قضاها في ممارسة هذا الفن القصصي .

الاسكندرية — **فتحي الابياري**

دعابة

طلعت في فستانك المشمشي
تائهة كمثل شمس العشي
يعجبك الدل ؟ فتيهي بما
لك من الحسن ولا تخشي
انا محب لك مستعذب
دلك من وجدانه ، منتشي

الرباط — **علال الفاسي**



فاضل خلف

قصيدة من البحرين

بقلم فاضل خلف

* * *

من نعم الله على ابناء الخليج العربي ، ان يكون من بينهم شاعر اديب يهب الادب والفن اروع الدراسات واجمل الاغاريد ، ويرفع رؤوس ادباء الخليج اذا ذكر اسمه في المحافل الادبية في ارجاء الوطن العربي ذلكم هو استاذنا الاديب ابراهيم العريض ، امد الله في عمره ، ووفقه الى المزيد من البحث والتاليف . وابراهيم العريض هدية سنية من البحرين العربية الرابضة في احضان الخليج الهادىء ، الى العالم العربي ، وهو ملء القلوب والاسماع في رياض الادب والشعر ، وله مؤلفات كثيرة ، منها « الاساليب الشعرية ، والشعر والفنون الجميلة ، والعرائس ، وشموع ، وارض الشهداء ، وقبلتان ، والذكرى ، وجولة في الشعر العربي المعاصر . »

وقد عرفت الاستاذ العريض اول ما عرفته ، في مجلة الرسالة ، للاستاذ احمد حسن الزيات وكان ذلك منذ عشرين سنة ، وكنت اطرب لقراءة هذا الاسم بين الاسماء اللامعة على صفحات الرسالة .

ان الحديث عن الاستاذ ابراهيم العريض يطول مداه ، ولا تستطيع هذه العجالة ان تفي بحقه ، وحسبي ان اورد هنا ، جزءا صغيرا من احدى قصائده ، وهي (بيني وبينها) وهي مثبتة في ديوان « شموع » الذي صدر في سنة ١٩٥٦ . وهذا الديوان هو مجموعته الشعرية الرابعة وقد كتب الشاعر لهذه القصيدة مقدمة باللغة الانكليزية ، وجهها الى من الهمته الشعر والفناء وبدون هذه المقدمة، تكون القصيدة غير مكتملة الجوانب . لانها في الحقيقة بسطت صفحات مطوية من شباب الشاعر وحبه ، ولهذه القصيدة قصة عاصفة لا يدركها الامن يقرا مقدمتها . وبطلتها فتاة رائعة الجمال من بنات الهند ، كانت تعيش في احلام الشاعر قبل ان يراها . وقد جذبته بصوتها الساحر ــ على جناح الاثير ــ الى الهند مرة اخرى بعد ان كان الزمن قد فرق بينه وبين هذه الارض التي ولد فيها .

وهذه القصيدة تنقسم الى عدة مقطوعات نظم كل منها في مناسبة خاصة . وقد نظم الشاعر مقطوعته الاولى قبل ان يرى بطلة احلامه ، وان كان صوتها يسامره على جناح الاثير . ويقول في هذه المقطوعة :

يا ابنة الحسن قد عشقتك صوتا — يتهادى على جناح الاثير
أنا اصغي اليك في كلة الليل — كأني في عالم مسحور
لم اكن قبل ذلك الصوت أدري — ان في الارض كل هذا السرور
يا طريد الجنان عرج على الخلد فما ذاك غير صوت البشير
هو كالروح في ضلوعي منه — خفقة بللت أرق شعوري
هو كالنجم ما تصورت الا — انه في السماء بات سميري

ثم تمضي الايام ، ويرجع الشاعر المفتون الى الهند ، وهناك في بلاد الذكريات يجتمع بفتاة الاحلام ، ويدهشه ان يرى ذات الصوت الجميل ، جميلة في صورتها كذلك ، بل هي فتنة للرائي ، وتاتي ريشة الشاعر الفنان ، لتصور لوحة فنية تهز المشاعر حين تتلى ، وتطرب القلوب عند الانشاد . انها ريشة العريض ، الشاعر الذي خلق ليغني ، كما قال يوما الاستاذ عيسى الناعوري . فلنستمع الى الشاعر وهو يقول :

يا ابنة الحسن عشت اهواك لحنا — فاذا انت فتنة للرائي
نهلت من جمالك العين ما كانت به الاذن ــ قبلها ــ في ارتواء
كنت اجري مع الخيال الى ان — لحت لي فانتهيت من خيلائي
روعة الحسن في تامله الصا — دق أضعاف روعة الاصفاء
أومض الحب في سماء وجودي — فاذا الكون ضاحك الارجاء
وردة انت ــ يا لطهرك ــ رفت — حمرة في خميلة الشعراء
اعذريني اذا تلمست قلبي — بين تلك الضفائر السوداء

لقد رأى الشاعر فتاته التي كانت تعيش في احلامه منذ امد بعيد وكانت روعة الحسن اضعاف روعة الاصغاء . ولكن رؤيته لدمية الهند كانت رؤية عابرة ، وهو يريد ان يلقاها . انه يريد ان تحس به كانسان وكشاعر فنان . بل هو يريد ان يتعرف اليها فماذا يقول في سبيل ذلك :

يا ابنة الحسن لا تقولي غريب — غربتني في الحب عينا مهاتي
لم تكن غير نظرة تركتني — ظامئا ــ بعدها ــ الى نظرات
سالتني : أأنت تشعر هلا — سألت عني النجوم ــ رواتي
انا من في الجمال غرد حتى — ردد النيل لحنه للفرات

ثم ينال الشاعر المحب ما يتمناه ويجيء اليوم الذي كان يحلم به ويترقبه بفارغ الصبر ، فيقام حفل للتعارف . ويحيي الشاعر فتاته بأبيات صادقة يقول فيها :

يا ابنة الحسن انت وحدك سر　　غامض بين كل هذه الحسان
وشحوا الافق فاستطار بروقا　　ومضها لا يضيء غير ثوان
غير ان الذي اضاء دواما　　هو شيء في ثغرك الفتان

ويتم التعارف ، ويلتقي الشاعر المحب بفتاة الاحلام كثيرا ، فتلمح في عينيه اثار الحب ، وعلى قسمات وجهه ملامح العاشق الموله . ولكن لا تسأله بالتصريح عن هذا الحب العاصف ، بل توجه اليه سهاما من عينيها الجميلتين، وكأنها تسأله عن سر هواه فيقول :

يا ابنة الحسن كم تسائلني عيناك　　من هذه التي اهواها
كيف أفضي بالسر وهي قريب　　منك تصغي الى حديثي انتباها
هل تضم السماء في الليل الا　　قمرا واحدا ينير دجاها
أفافضي اليك باسم التي اسمع في انة　　الرباب صداها
افافضي اليك باسم التي ابصر　　في غرة الصباح سناها
أفافضي اليك باسم التي انشق　　في كل نفخة رياها
كيف افضي اليك .. انت التي　　اعلم مني بما جنت عيناها
فاقربي للسماع ، أهمسه في اذنك　　همسا لانني اهوا .. ها
انها ظبية جعلت لها قلبي　　كناسا فلم يزل مرعاها
طالعي البدر في تجليه حسنا　　هو لو ينتمي لكان اخاها
هل عرفت التي تعشقتها بعد　　وها قد تبسمت شفتا (ها)
ما ارق ابتسامها لي اذ ضمت　　جوابا على سؤالي ـ فاها

ثم يستمر الشاعر بنفس القوة والروعة ، حتى نهاية القصيدة . وقد اهداها الى ملهمته في الرسالة الانكليزية التي وجهها اليها وهي التي اشرنا اليها في مقدمة هذا المقال ومنها هذه الكلمات :

(وانني كشاعر لا كمسكين كما قلت ذات مرة . له قلب تحس كل خفقة منه كما تحس روعة الموسيقى في وطني . اقول انني كشاعر ليس لي الا طريقة واحدة للتعبير عن عواطفي تجاهك وهي الشعر . انه الشعر ، واأسفاه ، الذي لا تفهمينه ، وكيف تستطيعين ذلك ؟ ولكن العالم العربي بأجمعه يصغي اليه الان مفتونا ببهجته ، وانني لاتوسل اليك ان تصدقي هذا القول) .

ثم يسترسل الاستاذ ابراهيم العريض ، في رسالته اليها فيقول :

(ارجوك لا تقولي انني احرجتك ، فليس هناك شيء أبعد من هذا على تفكيري لقد كنت انت مصدر الهامي يا اختي العزيزة ، وهذا احلى اسم ادعوك به ، ولهذا ارجو ان اهديك صفحات الهمتنيها ـ انها هديتك انت ترد اليك مرة اخرى . وانها لذات حرمة لا يرفضها سوى من يدنس المقدسات . فهل تتنازلين لقبولها . انك تستطعين الاحتفاظ بها كذكرى تذكرك بأسعد ايام اخ شاعر ، وقد غمرت هذه الصفحات بموسيقاها قلوبا حلوة كثيرة فهل تستطيع ان تكون لك كذلك ؟ انني لا انتظر ان تردي على هذه الكلمة ولا انصحك بذلك ولكن ارجو الا يكون لك هواجس عنها .

انه لقلب من ذهب أتقدم به منك خالصا بكل ما فيه من كنوز مطروحة هي الان تحت قدميك) .

تعابير شعرية لا مندوحة لقلب شاعر خفاق من النبض بها نثرا أكانت الوسيلة أم شعرا واستاذنا ابراهيم العريض شاعر حساس رقيق في شعره ونثره .

تونس

فاضل خلف

الملحق الصحفي بسفارة الكويت

لو غزلت

يا حبه يا سر اسراري　　يا ضحكة تلهو بزناري
يا حبه يا لهفة رقصت　　رقص الشعاع ببحر افكاري
من لي بعينيه اللتين على　　دنياهما بعثرت اشعاري
حتى متى شوقي يعللني　　بندى العبير ودفء نوار

لا .. لا تلمني ان غفى املي　　غفو اللحون بصدر قيثار
عمري انا ما شمس مطلعه　　ان لم تعانق فجرك الناري
آه سألتك ان تمزقني　　شوقا ليزهر حلمي العاري
في ضمة كالليل عارمة　　تصحو بها شهبي واقماري

تحلو خطايا العمر لو غزلت　　عيناك آثامي واوزاري

دمشق

سلوى شحادة

حكاية قديمة

***

اكرهك ... اكرهك ... اكرهك

احس بنفسي تتفلت لتنقض عليك وتخمد جذوة الحياة النابضة في صدرك ... انا اكرهك ... لا تنظري الي بتهكم ، ولا تهزي راسك ساخرة ، فانني اقطر مقتا وحقدا ... انت لا تصدقين حرفا واحدا مما انطق به .. حسنا انظري الى يدي الراعشتين غضبا ، وتفرسي بشرايين النافرة المسمومة ... اشعر بها فوارة بالجنون والتمرد وكم اخشى ان تمتد الى عنقك وتزهق روحك ... لا ... لا ... لا تضعي يديك حول جيدك الاملس، فانا لم افقد رشدي بعد ، ولا توجد امراة في الدنيا تستحق حياة رجل ... لا توجد ... ولكني افح في اذنيك ما اشعر به ... تقولين انك لست خائفة ... حسنا .. حسنا ... ان فتاة مثلك اوغلت في ظلمة نفسها بحيث اضحت حائرة لا تدري الى اين تسير قد تخدرت اعصابها، ومات قلبها ، وكانت هذه الظلمة قبرا ثوت فيه ... ارى بريقا باردا يومض في عينيك اشبه ما يكون بوميض الفولاذ ... هذه العيون الزجاجية اللامعة ، انني اكرهها لان فيها الموت .. اراك تبتسمين ساخرة بصمت ، تماما كما تفعلين دائما ... هل تظنين انني اخشاك ... هذا ما تعتقدينه ؟ لا .. انت مخطئة يا صديقتي ، انني اخشى نفسي فيك لانني لا اعرف متى اثور ولا متى اهدأ ... تسألين لماذا اكرهك ... يا للسخرية ... هل نسيت انك سر الجرح المدفون في قلبي ...

بالامس القريب ، رسمت بيديك اسطورة غامضة لفت خيالي بالضباب السحري ، فغيبت في ذاتي فكرة اغرب منك تناهت الي فيها همسة ماتت على شفتي : اكرهك.. احبك ... هكذا قلت لنفسي .. اكرهك .. احبك ... ورضيت لنفسي ان اضل دربي ، اسير معك الى حيث اضيع ... كرهتك نفسي حتى العلقم .. واحبتك حتى الموت ... لماذا تبتسمين ؟ هل كنت تدركين هذه الحقيقة الكامنة وراء ضلوعي ؟ تقولين نعم ؟ اذن ، لهذا اردت ان تعبثي بي ... يا لك من لعينة .. كرهتك جدا ... لم تكوني يوما الا ظلا لشبح رهيب يتحطى في ذاتي ... وحشا مخيفا يدلع لسانه الاحمر المتلوي ويطل من مداخل الظلمة على الوجود ... كنت لي خطيئة ..

اراك تقهقهين بصوت يضج في مسامعي كطبول الموت ويخيل الي ان نارا متأججة تضطرم في عينيك يرقص حولها الجن والعفاريت رقصة الجحيم .. اي عالم غريب يعيش في عينيك ... احب هذا العالم وارتعد منه ... لا تقولي هذا شأنك ... انه شأنك انت ... قصتك التي تسري في عروقي ... احس بالنار تصلي اعصابي ... اذهبي عني انني احقد عليك وارغب فيك .. اتهافت على الجذوة حتى احترق واصبح رمادا ، وكلما اكلت مني شيئا كل ما ازددت بك رغبة وجنونا ...

ماذا تريدين مني بعد .. ؟

اوهام تجوس خلل نفسي ، تشدني الى اشواك مطمورة وراء غلالة الحلكة ... زرعتها يداك ... خطيئة تولد خطيئة ... اقتات من ثمار الخطيئة وهي تقتات بي ... تغذي رغبتها المحمومة بالدم ... انت تريدين ذلك ...

لو لم تكوني انت لاردتك ان تكوني انت ...

لا تعجبي ، انني احطم القيد الذي يربطني بما اريد... بعقلي الناقم .. ولكن لا .. ابعدي عني ... اكرهك ... خلفتني رمادا باردا ... حكايتك القديمة اعرفها ... انت علمتني هذه الحكاية ... لا تنكري .. انا واحد من الف واحد من الف مجنون غبي ... كلهم ابتلعتهم ظلمة الخطيئة ... اعرفهم واحدا واحدا ، ولكنهم ماتوا في عينيك ولم تبق منهم سوى رؤى كئيبة تطل عليك كالاشباح المبهمة ... ارتويت منهم .. الف مجنون غبي .. لم تبق منهم قطرة دم لم ترتشف ... يموتون فوق ارض جليدية فارغة دون ان تختلج في صدرك خفقة حس ، فراوا فيك الها مقيتا في شبه وحش بغيض .

اكرهك .. اكرهك ..

انني اسمع انات الضحية التي لم تزل تتعفر في وادي ظل الموت .. هل تسمعينها مثلي ... يخيل الي انك صببت في اذنيك قطعتي ذهب كي لا تسمعين ... تقولين انني واهم ... لا .. انت خادعة ... حكايتك اعرفها... قالوا لي عنها ولست اريد ان اكون واحدا منهم ... لا اريد ان اكون طعما للهاوية ...

انطفأ في عيني ضوء ...

بقية لهاث توارى خلف الابد ... لم اعد اراك ولا اريد .. يكفن الليل حلما كان ذات يوم بهيج ... غيبي عن عيني يا قصة الخطيئة .. انا لست حكاية من حكاياتك القديمة ، اريد ان اكون قصة جديدة ... وانت .. وانت حكاية قديمة ...

احبك ... اكرهك ...

اكرهك ... احبك ...

لا .. لا تصدقي ... انني اكرهك ...

صموئيل عبد الشهيد

الاخرس شاعر عصر الانحطاط

بقلم مير بصري

* * *

ولد في الموصل وعاش في بغداد وتوفي في البصرة ، وكان همزة الوصل بين القرنين التاسع عشر والعشرين . فلقد اتصل بداود باشا اخر ولاة المماليك الذي عزل ونفي في سنة ١٨٣١ ومدح السيد عبد الرحمن النقيب الذي ولي رئاسة الحكومة الوقتية في سنة ١٩٢٠ وتوفي سنة ١٩٢٧ .

ذلكم السيد عبد الغفار عبد الواحد وهب المعروف بالاخرس لحبسة كانت في لسانه ، ولعله كان انبه شعراء بغداد ذكرا وابعدهم صيتا في عصر الانحطاط . وقد ردد ذكر عقلة لسانه في شعره ، فقال من قصيدة يمدح ابا الهدى الصيادي الرفاعي حين زار بغداد سنة ١٨٦٧ ، وقد اشتهر بعد ذلك بصلته الوثقى بالسلطان عبد الحميد الثاني :

فهو عن مدح سواكم اخرس   وبكم افصح حزب الشعرا

وقال يمدح المفتي ابا الثناء السيد محمود شهاب الدين الآلوسي :

وقد اخرستني من علاك فصاحة   الست تراني اخرس النطق ابكما؟

وقال :

هذا لساني يعوقه ثقل   وذاك عندي من اعظم النوب
فلو تسببت في معالجتي   لنلت اجرا بذلك السبب

ولد الاخرس في الموصل في نحو سنة ١٨٠٥ وقدم بغداد شابا ولم يلبث ان ولج محافلها الادبية واتصل بالوالي داود باشا الذي كان يعطف على العلماء والادباء . وديوان الاخرس الذي جمعه احمد عزت باشا الفاروقي وطبعه في الاستانة سنة ١٨٨٧ قد ضم مقطوعتين للشاعر قالهما في عهد هذا الوالي ، اولاهما بيتان قالهما « حينما حبسه المرحوم داود باشا من جهة ما زوره عن عبد الرحمن باشا والي الموصل وكان ذلك سببا لاتصاله به » :

اقول للشامت لما بدا   يكثر بالتعنيف والشين :
أليس يكفيني فخارا وقد   اصبحت في قيد وزيرين ؟

ولا نعلم شيئا عما زوره الاخرس عن والي الموصل فكان سببا لسجنه في بغداد واتصاله بواليها . اما المقطوعة الثانية فقصتها انه كان واقفا بين يدي داود باشا فأعطاه عريضة وامره بأن يتلوها ويلخصها ، فارتجل البيتين الاتين :

فديتك لا ترجو لنطقي تكلما (كذا)   فان يراعي عن لساني يترجم
غرقت ببحر من نوالك سيدي   فكيف غريق عائم يتكلم ؟

ويروي جامع الديوان في ترجمته للشاعر ان داود باشا ارسله في صباه الى بعض بلاد الهند ليصلحوا لسانه فقال له الطبيب : انا اعالج لسانك بدواء فاما ان ينطلق واما ان تموت ، فقال : لا ابيع كلي ببعضي ! وقفل راجعا الى بغداد . ولا ندري مبلغ صحة هذه الرواية ، فظاهرها يدل على الصناعة والتنميق . ولم يكن مألوفا ارسال المرضى للعلاج في خارج البلاد ، وكانت صلة الوالي داود باشا في اخر عهده غير طيبة بالمقيم البريطاني في بغداد وبحكومة الهند . وديوان الاخرس على كل حال خال من اية قصيدة في مدح داود باشا في ابان ولايته ، لكن الشاعر مدحه بقصيدة طويلة بعد عزله انفذها اليه الى الاستانة ، ومطلعها :

بوادي الفضا للمالكية اربع   سقتها الحيا منا جفون وادمع

ويقول منها :

فهل انت مثلي اضر بك الهوى   وهل لك قلب لا أبا لك موجع
لئن نشرت طي الغرام الذي لها   فقد طويت مني على الوجد اضلع

ومنها :

أراني مقيما بالعراق على ظما   ولا منهل للظامئين ومرتع
وتيت بورد الماء ، وللماء اجن ،   يبل به هذا الغليل وينقع !
لعل - وما يجدي لعل - وربما   تمائم غم أطبقت تتقشع
يعود زمان مر حلو مذاقه   وشمل احباني كما كان يجمع
فقد كنت لا اعطي الحوادث مقودي   واني لريب الدهر لا اتوجع
ابي صفاة زادها الدهر قسوة   من الصم لا تبلي ولا تتصدع
فسالمت حرب النائبات فلم تزل   تقود زمامي حيث شاءت فاتبع
وكنت اذا طاشت (١) سهام فسيها   ومني الردى من صنع (داود) أدرع

ثم يذكر جود الوزير وعطفه وبأسه ويقول :

أبا حسن ، هل أوبة بعد غيبة   فللبدر في الدنيا مغيب ومطلع
لئن خليت منك البلاد التي حلت   فلم يخل من ذكرى جميلك موضع
ففي كل ارض من اياديك ديمة   وروض اذا ما اجدب الناس ممرع

وهو لا ينفك يذكر داود باشا في شعره بعد اعوام طويلة ، فاذا مدح السيد علي النقيب قال :

تبورك من لا زال يورثني الغنى   وذكرني ايام داود ذي الايدي

واذا ذكر ابتلاءه بحرفة الادب قال :

وليس لي حرفة سوى ادب   جم ونظم القريض والخطب
من بعد داود لا حرمت منى   فقد مضت دولة الادب !

لقد مضت دولة الوزير داود باشا لكن دولة الادب لم تمض ، فقد وجد الشاعر الاخرس من بعده حماة ورعاة كالسيد محمود نقيب الاشراف والمفتي ابي الثناء محمود شهاب الدين الالوسي ومحمد امين الواعظ والشاعر عبد الباقي العمري والسيد علي النقيب وولديه سلمان وعبد الرحمن وعبد الغني الجميل وابنه محمد وغيرهم من اشراف بغداد وعلمائها الذين حبوه بعطفهم وجودهم واتخذوه نديما لدواوينهم . ومن الغرابة ان صلة الشاعر قد قطعت بالموصل مسقط رأسه أو كادت ، فديوانه الضخم لا يحوي سوى قصيدة واحدة يمدح بها رئيس علماء الموصل عبد الله الفاروقي . لكنه وجد بديلا طيبا في البصرة التي زارها غير مرة ومدح اشرافها ونقباءها واستمتع برفدهم وودهم .

كان الاخرس لطيفا ظريفا يضفي مع رفيقه عبد الله الخياط (المتوفي نحو سنة ١٨٦٠) على مجالس بغداد ودواوينها جوا رائعا من النوادر والفكاهات . وقد أعتبر الشعر تجارة يروج سوقها حينا ويكسد احيانا ، فقال يخاطب السيد علي نقيب اشراف بغداد :

تاجرت في شعري اليك ، وانما   نفق القريض لديك بعد كساده

وقال يمدح ولده السيد عبد الرحمن الكيلاني :

ربحت فيكم تجارة شعري ،   لا رماها في غيركم بالكساد !

وقال في مدح عبد الغني جميل :

أتاجر في شعري ، وكل تجارة   من الشعر الا في علاك لفي خسر

وقال يرثي عبد الواحد جلبي من اعيان البصرة :

وقد كان فيك الشعر ينفق سوقه   لديك ويبتاع الثناء ويشترى

ردد هذا المعنى كثيرا في شعره ، لكنه كان مع ذلك عزيز النفس ابيها ، فاذا هنأ الشاعر عبد الباقي العمري بمنصبه الكبير قال :

سواي يروم المال مكترثا به   ويرغب في غير الذي أنا راغب
وانك ادرى الناس فيما اريده   واعلمهم فيما له انا طالب

واذا سمت نفسه الى المعالي اعتذر فقال :

اسفا للشعر ، لا حظ له   في زمان الجهل والقوم اللئام

وقال :

لو تنبهت لها مجتهدا   كيف بالحظ اذا ما الحظ ناما ؟
او رأى المقدور فينا رأيه   ما تكلفت نهوضا وقياما

---

(١) لعل الكلمة « راشت » فهي ادل على المعنى .

وهو لا يفتأ يندب جور الزمان وظلمه فيقول :

وان فاض دمعي لا ازال أريقه   فمن كبد تصلي ومن لوعة تصلي
وجور زمان لو ارى فيه منصفا   لحاكمته فيه الى حكم عدل
أمثلي يطوف الارض شرقا ومغربا   على ارب يرضى من الكثر بالقل
وتقذفني الاسفار في كل وجهة   فمن مهمه وعر الى مهمه سهل
وتحرمني الايام ما استحقه   فلا كانت الايام اذ ذاك في حل
وارجع اختار الاقامة خاملا   حليف الجهول الوغد والحاسد النذل
يطاولني من لست ارضاه موطئا   واكرم نعلي ان اقيس به نعلي
وفاخرني من يحسب الجهل فخره   وناظرني من لم يكن شكله شكلي
فتبا لدهر تستذل قرومه   وتستبكر الانذال فيه وتستعلي
اقاموا مقامي من جهلت بزعمهم   فما قام في عقد هناك ولا حل
ولو طلبوا مثلي لعز وجوده   وما وجدوا مثلي، واني لهم مثلي؟
الى م أمني نفس حر ابية   شديد عليها في الدنى موقف الذل

ويثور ، وهو الساكن الهادىء ، فيصرخ قائلا :

تركت لكم ، اعيان بغداد ، منزلا   تجور عليه النائبات وتعتدي
ففيم مقامي عندكم ظامىء الحشا   ولا انا بالواني ولا المقيد
واني عزيز النفس لو تعرفونني   ولي بينكم ذل الاسير المصفد

ويقول :

وساء زمان بعد ان سرها بهم   فماذا يلاقي الحر في الزمن الوغد

ويقول ايضا :

تنفس عن وجد توقد جمره   فاجرى مسيل الدمع ينهل قطره
وبات يعاني الهم ليس ببارح   على قلبه اقدامه ومكره
تمنى ، وما يغني التمني ، مطالبا   حري بها لولا الدنية دهره
ودون امانيه عوائق جمة   يضيق لها في المنزل الرحب صدره
تحمل اعباء المتاعب والتقى   على غرة صرف الزمان وصبره
واشقى بني هذا الزمان اريبه   واتعب من فيه من الناس حره

ويقول :

اذا الحر ألفى الضيم شرط حياته   رأى الرأي فيها ان يموت ويقبرا

ولكنه بالرغم من كل ذلك رضخ لجور الدهر واستسلم لصروف الزمان. ولقد قيل « ان سيد نفسه يرث الالام » ، فاطمأن شاعرنا الى الدعة والخمول واتخذ ممدوحيه اسيادا يسترفد رفدهم ويعيش في ذراهم ولا يأنف ان يقول في بعضهم :

أراني ـ والخطوب اذا ألمت ـ   رجعت الى جميل ابي جميل
كأن الله وكله برزقي   وحولني على نعم الوكيل

ويقول ايضا :

كفاني المهمات عبد الغني   وذلك من بعض افضاله
فان نلت مالا فمن جاهه   وان نلت جاها فمن ماله

ان شعر عبد الغفار الاخرس مثال لشعر عصر الانحطاط الأدبي ، فهو شعر جامد جاف يغلب عليه روح المحاكاة والتقليد ويكاد يخلو من الاشراق والانطلاق والابتكار . ويمكن القول ان قيمته قد اصبحت تأريخية اكثر منها ادبية . اما مواضيعه فتقتصر على المديح والتهنئة والرثاء والغزل والبكاء على الطلول ، وقد تتناول شيئا من الوصف والهجاء شابتها المبالغة المستهجنة وشانها الاسراف المعجوج والتكرار الممل . وهذا اخرسنا يهنيء السيد سلمان بنقابة الاشراف فلا يملك الا ان يردد قول ابي العتاهية :

أتتك النقابة تسعى اليك   تجر من التيه اذيالها
اذا لم تكن انت اهلا لها   من الانجبين فمن ذا لها ؟

وهو يكثر في نسيبه من وصف المحبوب بالجؤذر والغزال ، والمتيم بالاسد الضرغام ، ويتساءل كيف يتسنى للغزال ان يتصيد الاسد محاكيا في ذلك ابن الفارض الذي قال :

هل سمعتم او رأيتم اسدا   صاده لحظ مهاة او ظبي ؟

فاذا عرضت له مناسبة للابداع ـ وقلما تعرض له ـ لم يستطع التحليق في شعره كما في وصفه للباخرة حين استقلها عائدا من البصرة فلم يقل فيها الا ابياتا متهافتة :

قد ركبنا بمركب الدخان   وبلغنا به اقاصي الاماني
حين دارت افلاكه واستدارت   فهي مثل الافلاك بالدوران الخ..

ولا يخلو ديوان الاخرس مع ذلك من الشعر الطريف ، فمن ذلك وصفه لسرقة داره قبيل عيد الفطر :

يا ليلة في آخر الشهر   قد جئت بعد الصوم بالفطر
كشف الصباح لنا حوادثها   وتكشفت عن مضمر الغدر
اصبحت منها غير مفتقر   ابدا الى حرس على وكر

ثم يصف منزله الذي « اخذوا مساحته يوما فما اوفى على شبر » ويصف صبيته الغر الوجوه ، السود الحظوظ الذين فرحوا بالغلائل الحمر فجرت دموعهم لضياعها . ويصف خليلته «نظيرة الخنساء» التي اسرفت في ندب اشيائها المسروقة وفقرها المدقع فيخاطبها قائلا :

هل كنت قبل اليوم في سعة   وملابس من سندس خضر ؟
او ما ذكرت العمر كيف مضى ؟   لا كان ذاك العمر من عمر !

ومن جميل شعره في الغزل :

اذا كان خصمي حاكمي كيف اصنع   لمن اشتكي حالي لمن اتوجع ؟
غرامي غريمي وهو لا شك قاتلي   وكم ذل من يهوى غراما ويخضع
اباح دمي بين الورى من احبه   فقلت ، وقلبي بالجوى يتقطع :
دموعي شهود ان قلبي يحبه   وحق الهوى عن حبه لست ارجع
وراموا سلوي في هواه عواذلي   وحق هواه لست اصغي واسمع
واصبحت كالمجنون في حي عامر   بليلى ومن وجدي اهيم واولع
فلو زارني في النوم طيف خياله   لكنت بطيف منه ارضى واقنع

وقوله :

الا يا فؤادا قد أضر به النوى   واشجاه برق للحبيب لموع
اذا ما دعاك الصبر يوما عصيته   وانت لما يقضي الغرام مطيع
كتمت الهوى دهرا فباحت بسره   عيون وافشت ما كتمت دموع
ويا منزلا للهو ابعده النوى   أللمدنف النائي اليك رجوع ؟
تذكرت فيك العيش ، والغصن يانع   وريق ، وشمل الظاعنين جميع

وقوله :

زيد لوما فزاد في الحب وجدا   مستهام تخيل الغي رشدا
مازح الحب مرة فاراه   ان هزل الغرام يصبح جدا
ورمى قلبه بجذوة نار   أوقدته بلاعج الشوق وقدا

وقوله من موشح :

حبذا مجلسنا من مجلس   جامع كل غريب وعجيب
نغم العود وشعر الاخرس   ومحب مستهام وحبيب
يتعاطون حياة الانفس   في بديع اللفظ والمعنى الغريب
بابلي السحر معسول الجنى   أين هذا واشتيار العسل ؟
واذا مر نسيم بيننا   قلت : هذا ويحكم من غزلي

وقوله ، وهو في البصرة وقد حن الى بغداد :

فيا زمن الصبا ، هل من رجوع   ويا عهد الشباب متى تعود ؟
سلام الله احبابي عليكم   الى بغداد يحملها البريد
يهيج لوعتي وجد طريف   لكم ويشوقني وجد تليد
فهل اخبرتم اني بحال   يساء بها من الناس الحسود ؟

وقوله :

من معيد لي اياما مضت   كان فيها الغي لو انصفت رشدا؟
اهصر الغصن اذا ما كان قدا   واشم الورد اذا ما كان خدا
كم اهاج الشوق من وجد بها   كلما جدده الذكر استجدا
وجرى دمعي من الوجد فما   يملك الطرف لجاري الدمع ردا

وقوله يتحسر على الشباب :

ذهبت لذاذات الصبا وتصرمت   اوقات انسك في الزمان الغابر
واذا امرؤ فقد الشباب فما له   في اللهو بعد مشيبه من عاذر
ولقد اقول لطامع برجوعها :   كيف اقتناصك للغزال النافر ؟

وقوله في الشنوق والوداع :

تحـن نياق الظاعنين ، ومـا لها   تحن وفـي القلـب المشوق حنين
ابا لنوق ما بالنازحين من الاسى   ووجـد بأحشاء الضلوع كميـن
ولمـا التقينـا للوداع عشيـة   وبـاحت باسرار الغـرام عيـون
بذلت لها من هذه العين عبـرة   واني لهـا لولا الفـراق ضنيـن
فلا القلب لما ازمع القلب صابر   ولا الدمع من يوم الفراق مصون
فاولاك ما قاسيت ، يا غاية المنى   حـوادث تقسـو مـرة وتلين
اذا كنت لا تدرينما الشوق بالحشا   سليني عـن الاشواق كيف تكون
جننت بذكـر العامرية ، والهوى   جنون ، ولكـن الجنون فنـون

ومن بديع حكمياته :

نؤمـل ان يطـول بنـا الثواء   ونطمـع بالبقـاء ولا بقاء
وتغرينـا المطـامـع بالاماني   ومـا يجري القضاء كما نشاء
تحـدثنـا بـآمـال طـوال   وليس حديثهـا الا افتراء
وان حيـاتنا الدنيـا غـرور   وسعي بالتكلـف واعتنـاء
نسر بمـا نساء بـه ونشقى   ومـن عجـب نسر بما نساء
ونضحـك آمنيـن ، ولو عقلنا   لحـق لنـا التغابن والبكـاء
الـى م يصـدنا لعـب ولهو   عن العظة التـي فيها ارعواء
وتنذرنا المنـون ونحـن صم   اذا مـا اسمع الصم النداء ...
ظهرنا للوجود وكـل شـيء   لـه بـدء لعمـرك وانتهـاء
لئـن ذهبـت اوائلنـا ذهابا   فأولنـا وآخرنـا سـواء
نـودع كـل آونـة حبيبـا   يعثـر علـى مفارقه العزاء
تسير بـه المنـايا لا المطـايا   الـى حيـث السعادة والشقاء
ولـو يفـدى فدينـاه ولكن   أسير المـوت ليـس لـه فداء

وقوله :

وما حيلة الانسان في مـا ينوبـه   اذا كـان امـرا لله فيـه مقدرا
وهبـك اتقيـت الرزء حيث رأيته   فكيف بمن يأتيكمن حيث لا ترى؟
ونحن مع المقدور نجري الى مدى   وليس لنا في الامر ان نتخيـرا

وقوله :

نؤمـل فـي الدنيـا حياة هنيئة   وما نحـن الا عـرضة للمصائب
ونغتر فـي برق المنـى وهو خلب   وهيهات ما في الآل مـاء لشارب
نصـدق آمـالا محـال بلوغهـا   ومن اعجب الاشياء تصديق كاذب
تسالمنـا الايـام والقصد حربنـا   ومـا هـي الا خدعـة من محارب
ونطمع ان تبقى ويبقـى نعيمهـا   فلم يبق منها غير حسرة خائب

اولع الاخرس بالخمر حتى شبهه الدكتور محمد مهدي البصير بأبي نؤاس ، ولكن اين هو منه ؟ فالنواسي مجدد فيعصره، مبتكر فيشعره، مفرد في وصفه ، اما الاخرس فببغاء تردد معانيالاقدمين واخيلتهم .

قال الاخرس :

أعنـدك علـم بـأن الهمـوم   علـى خاطر المـرء مثل الحرب
ولا مـن دواء الا لادوائهـا   ولا برأ منهـا كبنـت العنـب
وحشر مـع الغانيـات الحسان   اذا حشر المرء مـع مـن احب
وانـي فقير الـى قهـوة   ومن لي بها مثل ذوب الذهب
تقوي العظام وتشفي السقام   ويذهب عـن شاربيها النصب
اذا فرجت بابن السمـاء   تولد منهـا لئـالي الحبيب

وقال :

قد نحرنا الزق يوم العيد نحرا   واذ بنـا بلجيـن الكأس تبـرا
وتخيلنـا الحميـا لهبـا   وحسبنـا انهـا بـالمـاء تورى
قال لي الساقي ، وقد طاف بها :   هي خمر وتراهـا انت جمـرا
يا نديما قـد سقاني كـأسه ،   اسقنيها في الهوى اخرى واخرى
ان احلى العيش ما مـر علـى   روضـة غنـاء والكاسات تترى
ويد المزن وازهـار الربـى   نشرت من بعد ذاك الطي نشرا
لا تخف من وزرها فـي شربهـا   او تخشى مـع عفو الله وزرا
راحة الارواح بالراح التـي   لـم تدع للهـم في الاحشاء ذكرا

وقال :

اذا ما الشيخ في الكأس احتساها   غدا في الحال انشط مـن غلام
لئن عللتني يـا صـاح يومـا   بأحبابـي فعللنـي بجـام ...
ومن لـي بالكـرى يوما ، لعـلي   ارى طيـف المليحـة في المنام
وما انسى لها في الركب قولـي   وقـد نظـرت لاجفان دوام ..
نحولي ما بخصرك مـن نحـول   وسقمـي ما بطرفـك من سقـام

وقال :

قام يجلوها وبرد الليـل معلم   خمرة ما اجتمعت يوما مع الهـم
فهـي تبـر فـي لجين ذائـب   او كنار في فـؤاد الماء تضرم
نظـم المـزج عليهـا حببـا   رصع الياقوت بالدر المنظـم
مرة يحلو بها العيش وفـي   مثلها قد يحمـد الدهـر المذمم
من رأى يا قوم منكـم قبلهـا   قبـل هـذا ان نـورا يتجـسم
فهي سر منعـت سر الضيـا   فـي ضمير الليل من ان يتكتـم
قدمت فـي عصرها حتـى لقـد   اوشكـت تخبرنـا عـما تقـدم

وقال :

جلا في الكأس جاليـة الهمـوم   وقـام يميس بالقـد القويـم
وقد فرش الربيـع لنا بساطـا   من الازهـار مختلـف الرقـوم
بحيـث الافـق مغبـر الحواشي   ووجـه الارض مخضـر الاديـم
هنالـك تطلـع الاقمـار فيهـا   شـمـوس الراح في الليل البهيم
كأن حبابها نظمـت نجومـا   رجمت بها شياطين الهموم ...
وقـد كانـت تـدار علـي راح   تعيد الروح فـي الجسد الرميم
اخذت بكأسهـا وطربـت فيهـا   فسلنـي كيف شئت عن النعيم
بحيث الشمس طالعـة مدامـي   وبـدر التـم يومئـذ نديمي ...

تلك ايام صفت للشاعر فنعم فيها بالحب والمدام ، لكنه علم انها لا تدوم وان «الهوى اكبر داع للهوان» في «زمان من حقه ان يذما» فقال:

تركت الهوى بعـد المشيب لاهله   وراجعنـي حلم لسلمـى يصارم
وما انسى لا انسى زمانا قضيتـه   وعود الصبا ريان والعيش ناعـم

وبث شكواه فقال :

شكوتك ما يلقي فؤادي من الاسى   وما كل من اشكو اليـه رحـيم
فؤاد شجاه ما شجا كـل وامـق   وما هو بعـد الراحلـين مقيم
ارى صبوة المشتاق دائمة الهوى   فما بال صبر الصب ليس يدوم ؟

ثم استكان وعلل النفس وقال :

هذى هي الدنيا كما تريانهـا   حرم اللبيـب وفاز فيها الاحمـق
فصبرت فيهـا والخطوب متاحـة   لا ضاجر منهـا ولا انا مشفق
حتى رأيـت النائبات تقول لي :   عجبا لصبرك كيف لا يتمـزق !

اشرف الشاعر على السبعين من عمره ، لكنه لم يترك قرض الشعر ولم يركن الى العزلة والانزواء ولم يمل الضرب في الارض في سبيـل بلغة العيش . ولعل اخر قصائده تهنئة السيد سلمان الكيلاني بنقابة الاشراف وورود الفرمان السلطاني بها اليه . وشد الرحال الى البصرة فمرض فيها وادركه حمامه في عشية عيد الاضحى سنة ١٢٩١ هـ. الموافق ليوم الاحد ١٧ كانون الثاني ١٨٧٥ م.

وقد طبع ديوانه بعد وفاته بعناية احمد عزت العمري الفاروقي ، ونشر صديقنا الاستاذ عباس العزاوي مجموعة له في شعر عبد الغني جميل وما قاله الاخرس فيه وطبعها ببغداد سنة ١٩٤٩ .

ولم يكد يمضي على وفاة شاعرنا الاخرس ثلث قرن او نحو ذلك حتى هبت على الشعر العربي نسمات جديدة ولاحت طلائع النهضة الادبية الحديثة في وادي الرافدين ، فكأنما بينه وبين الشعراء الذين تلوه دهر طويل .

بغداد   مير بصري

لم يأبه للنداء الذي طرق مسامعه ، ومضى يخاطب صديقه الحميم ، بحرارة وحنان ، هامسا في اذنه ، وماسحا راسه برأسه ، كمن يحنو على عزيز حبيب اوشك فراقه ، او دنت ساعة رحيله الى الابد . لم يشك لحظة انه وعى كل ما قاله كلمة كلمة، وفهم حديثه بكل دقائقه ، ومع ذلك لم يبد عليه شيء من علائم الفهم والاستجابة العاطفية ، فقد ظل جامدا لا حراك فيه . لم يكترث ابو سعيد لهذا الجمود والغباء ، فقد مضى في تودده وحنانه غير عابىء بكل النداءات التي تبلغ مسامعه فان ما هو بصدده ، ليعد اخطر عمل يقوم به في حياته المليئة بالتعب والعرق والالم .

الم ؟ ووقف عندها قليلا، ليعترف ايضا لصديقه بنصيبه من الالم العظيم .

— لقد قاسيت منه الكثير ايها الصديق ، وحسبك انك لم تتمرد مرة واحدة ولا قرأت في عينيك أي معنى من معاني الاحتجاج، لقد صبرت معي سنين طويلة ، ذقت فيها كل ما جرعتينه الايام ، من جوع وتعب ، من حر لاهب ايام الصيف ، وبرد لاذع في ليالي الشتاء ، واليوم اجدني اتخلى عنك وعيني دامعة ويدي راعشة، ولكن ما الحيلة ، وانت تعلم ما آلت اليه حالنا انا وانت في هذا الزمان النكد .

استرد ابو سعيد انفاسه اللاهثة، وتوقف عن الحديث قليلا ، ليبحث عن برهان يبرر هذا القرار القاسي في التخلي عن صديق العمر، وسرعان ما وجده حين وضع يده على معدته وعاد الى حديثه المتودد الحنون .

— انا معذور في ذلك يا صديقي ، فالمعدة الجائعة تنزع الرحمة من قلب الانسان وتجعل الاواصر متينة بين تقلصاتها المجنونة ، وبين تشنجات اليد ، حين تمسك بالسوط اللاهب، معبرة عن اقسى ما يسكن في اعماق النفس ، والمعدة نفسها هي التي تجعلني اتخلى عنك اليوم لرجل اخر.

وعندئذ سيتذكر ايامنا الماضية ، ايام كانت تمتلىء سحابة نهارنا بالعمل والرزق الوفير ؟ لا اظنك جاحدا سنوات السعة والرخاء وحين كنت اشاركك الرزق الذي كنا نعود به ، ولكن شد ما تغيرت بنا الحال اليوم. فقد جفت ينابيع الرزق ، ولم يبق لنا في «باب الجنين» موضع ، رحمة الله على باب الجنين وايامه الذهبية، فقد مضت الى غير رجعة، مضت ايام البغال والحمير والطنابر وحلت محلها العجلات النارية التي سدت علينا ابواب الرزق، تؤدي احداها في ساعة ما كنا نؤديه طوال النهار ، ورجال الشرطة — سامحهم الله — يملؤون الشوارع ويقفون لنا بالمرصاد ، ففي

جفت الينابيع

بقلم بدر الدين الحاضري

كل منعطف واحد منهم، يهز لنا بعصاه الغليظة ، وينهرنا بصفارته البغيضة : من هناك ابتعد يا ابن.... يا بغل.. والا ... ثم صفارة تلو صفارة وسباب وشتائم ثم اعود بك من حيث أتيت لابحث عن حارة ضيقة ، او الف بك الدنيا كلها ، من اجل ليرة او اقل من ليرة ، وغدا ستصبح الحارات شوارع نظيفة ، وتغص برجال الشرطة والمرور ولا يبقى لي ولك في الدنيا مكان غير اسطبلك .

وللمرة الاولى في حياته، لم يندفع ابو سعيد وراء معدته الخاوية ، ولم يلهب ظهره بالسياط فقد امتدت يده الى رسنه ، وخرج به ، يسحب



وراءه اشلاء حياته كلها .

— لقد تأخرنا كثيرا يا «ابو سعيد» واخشى ان لا يبقى في السوق غير « الجنابلة » ملاعين اولاد كلب انهم ينتظرون نهاية السوق ، ليساوموا وليشتروا الدواب بثمن بخس .

— تأخرنا ، تأخرنا كنت اطعمه قبل عرضه للبيع .

ومع ان محدثه الذي طال انتظاره على باب الدار يعلم كذب «ابو سعيد» فقد بدا عليه انه صدق كلامه اذ اردف مداعبا .

— ارجو ان لا تكون اثقلت عليه في الطعام والشراب لئلا يؤثر ذلك في خفة مشيته ورشاقته .

لم ينبث ابو سعيد ببنت شفة ، فهو يعرف الكثير عن خبثه ومكره ، انه دلال ، وهو اخبث من كل « الجنابلة » الذين تحدث عنهم في السوق ، لا يهمه ان يقوم « بدلالته » بامانة وشرف بقدر ما يهمه ان يبيع باسرع ما يكون البيع ، وهو لا بد حاصل على الدلالة بتمامها ، بل كثيرا ما كانت تزيد ما دام يعمل لمصلحة المشتري ، وان تظاهر بالعطف على البائع المسكين .

ولكن لن يخدعني ، هكذا حدث ابو سعيد نفسه ، فلن اتخلى عن صديق العمر بالسهولة التي يتصورها. لن ابيعه باقل من بنفسجية ، اجل بنفسجية تعد مئة ليرة سورية ، لا تزيد ولا تنقص . انها تكاد تبلغ بي الغاية وتحقق لي المراد .

وشرد خاطره حين وصل الى هذه النقطة بالذات ، فقد راودته فكرة البيع منذ بلغ مسامعه نبأ الربح الوفير الذي يجنيه في « بور الاسكندرية» زميله في السوق وجاره في الاسطبل ابو حامد الدالي . لقد ذهب الى الاسكندرية منذ سنوات ، آه ما اجمل الاسكندرية : حلم ارتبط بخياله منذ ان كان يتردد على دكان جده الحلاق في باب قنسرين . وان ينسى شيئا فلن ينسى منظر جده العجوز وقد راح يروي مغامراته

الساذجة وذكرياته البعيدة الموغلة عن اسكندرية مصر ، يا عيني على اسكندرية مصر هكذا قال جده ، انها من عرائس البحر تستحم كل يوم في مياهه ومنارتها من اعجب ما خلق الله في هذه الدنيا ، وحسبك ان تزور كل يوم سيدي « ابو العباس » . انه ولي من اولياء الله الصالحين ، ما دعاه الانسان الا لباه ، ولا قصده مريض الا شفاه ، وفي كل بقعة من بقاعها ضريح ، وعلى مقربة من كل بيت حارس من حراس الله الامناء يكلؤون الناس برعايتهم وعنايتهم . كان يمكن ان يمضي ابو سعيد في حلمه هذا ، يستحم بمياه البحر ويمتع ناظريه بضياء المنارة ، ويهيم في احضان ابي العباس ، لولا ان امله المتجسد في بغله قد كف عن الحركة.

— حا ... يا بن حا ...

ولكن البغل ثابت لا يريم .

ترى ماذا يحل به لو اصاب البغل شر لا يمكن دفعه ، كأن يقعد به العجز والضعف والجوع عن متابعة المسير . انه جلد على عظام كما يقول الدلال الخبيث ، ولكنه قوي يستطيع حمل الاثقال ، وجر العربات وقطع المسافات البعيدة . حقا انه لم يطعمه شيئا ذا بال منذ اسبوع على الاقل ، ولكن ليست هي المرة الاولى التي يحرم فيها من طعام دسم ، وكم لقي خلال السنوات السبع من ايام عجاف ، لم يدخل جوفه تبن ولا شعير ، ومن اين التبن والشعير ؟ .. ما دمت انا لا احصل احيانا قوت قومي ، ولكن بعد ايام قليلة ستتبدد المجاعة الى الابد ولن اشعر بالجوع مطلقا ، ايكون ابو حامد « الجربان » أقوى مني ؟ سوف اختال عليه في ميناء الاسكندرية وسوف اذكره بقوة ساعدي الذي لا يقل عن ساعد بغل متين . والهبته هذه الفكرة وعاد الى بغله ، يسوطه ويزجره .

— حا ... يا بن الكلب حا ...

ولكن البغل ثابت لا يريم .

— اعني عليه يا شيخ محمود قبل ان يقفل سوق الدواب .

— اظن الوقت قد فات ، ولا فائدة من عرضه في السوق ، انها النهاية يا ابو سعيد .

ولم يصدق ابو سعيد كلام الدلال راخذ يلعنه ويسب « الجنابلة » اللصوص .

— شده معي يا شيخ محمود ، لم يبق الا خطوات .

ولكن البغل ثابت لا يريم .

واجتمع الناس حول البغل وابي سعيد والشيخ محمود الدلال وكانهم ينتمون الى جمعية الرفق بالحيوان ، فأخذوا يلومون ابا سعيد على قساوته ويصفونه بالجنون تارة والوحشية تارة اخرى ، وابو سعيد يزداد سوطه التهابا والبغل ثابت في مكانه لا يريم .

وتوقف ابو سعيد لحظة تردد في ذهنه امله الضائع ، وعبثت في مخيلته مياه البحر الزرق ، والمنارة العجيبة ، وجامع سيدي ابو العباس؟ ماذا يمكن لو استنجد به فقد سمع عن جده انه يغيث الملهوف . لم يقصده انسان الا لباه ، ولا مريض الا شفاه وهل في الدنيا من هو احوج منه للنجدة وتلبية النداء ؟ .. والتفت الى الوراء ، واخذ يحملق في الافق البعيد ، عله يلمح طيوف الحبيب ، ويسمع هدير الامواج ، ويشم رائحة ابي العباس ، ومياه البحر الزرقاء ، واخذ ينادي :

— يا ابو العباس ، يا قاضي الحاجات ، أعن بغلي على المسير ، حتى استطيع بيعه .

ولما لم يكن احد من الناس قد سمع مرة واحدة عن ابي العباس هذا ، فقد اقتصروا على وصفه بالجنون بعد ان كانوا يصفونه بالقساوة والوحشية . لم يكن ابو سعيد مجنونا حتى تلك اللحظة ، ولو قيض لابي العباس ان يسمع نداءه ، وللسماء ان تستجيب لدعائه ، لكان يمكن ان تسير الامور سيرها الطبيعي ويحقق ابو سعيد حلمه البعيد في « بور » الاسكندرية .

— حا — — حا — — حا — — حا —

ولكن ما الفائدة ؟ ان السماء لا تستجيب ، وابو العباس بعيد بعد السماء ... وكذلك ابو حامد الدالي، الا لعنة الله على .... على هذه الدنيا .

— مات ... فطس ... اتركه..

حرام عليك ... يخرب بيتك .

ولم يصدق ابو سعيد كل هذا ، فالعنان ما زال بين يديه ، ويستطيع ان يسحبه حتى النهاية . لم ير الناس أبا سعيد في ذلك اليوم ، فقد تواري عن الانظار بعد ان جرد البغل من رسنه وفي صبيحة اليوم التالي رآه الناس وقد تدلى من رقبته حبل غليظ ، ووضع على راسه كيسا محشوا بالورق وهو يغني :

عا سكندرية ، عالعصفورية ..
حا ... حا ...

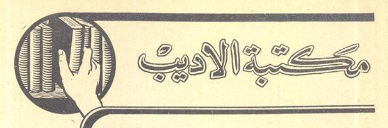
حلب **بدر الدين الحاضري**

جراح

أنا الذي لا أعرف الضجر
أنا الذي لا أعرف السفر
جئت اليك اليوم يا مشرقة العيون
أشكو من الضجر
جئت حزينا .. متعب النظر
تأكلني الظنون
أنوح بعد ان عذبني السفر

جبت بحار الارض في السحر
حملت أحزاني الى القمر
ذهبت للنجوم
أشرب من ضيائها ..
أغرق في الكروم
مددت خطوي نحو درب الشمس
أردت ان أنساك ياحبيبتي
لكنما وجهك للنظر
دربا من الافراح والهموم
يملأ عيني مع التخوم

بغداد **خالد الحلي**



سنابل راعوث

قصائد مختارة من شعر ـ شفيق معلوف ـ ٣٤٢ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار مجلة شعر ببيروت ـ مطبعة دار مجلة شعر ببيروت

شفيق معلوف أو قلْ : « شاعر عبقر » علم من اعلام شعرنا المعاصر ، وهو يمثل في البرازيل دارة هجرته « دولة » من الخلق الرفيع ، والفن البديع والنتاج المرهف ! وآخر ما زوّد به شاعرنا دولة المنظوم ديوانا جديدا حوى قصائد مختارة من شعره عنوانه « سنابل راعوث » وقبله سخا على دنيا الشعر بـ « الاحلام » و « عبقر » و « لكل زهرة عبير » و « نداء المجاديف » و « عيناك مهرجان » ، وفي كل عام يطرف شعرنا المعاصر بديوان جديد ، ذي لون جديد ، ونغم جديد ، وفي مطلع خريف عام ١٩٦٢ ودّع (شفيق) لبنان موطنه وعاد الى البرازيل بعد ان احتفى به القطران الشقيقان سورية ولبنان حفاوة بالغة تتساوق والمنزلة الرفيعة التي يحتلها في دولة الادب ودنيا الاخلاق والاريحية ولقد ربح لبنان من زيارة شاعرنا المعلوفي قصيدة « زحلة » كما ربحت سورية من حفاوتها به قصيدة « دمشق » وهما من عيون الشعر ، وارجّح ان شاعرنا اودع احدى دور النشر في بيروت ديوانا جديدا يخرج للايدي بعد بلوغه (سان باولو) دارة اعماله !

من هي راعوث ؟ اختار شفيق معلوف « سنابل راعوث » اسما لاخر ديوان خلعه على خزانة الشعر فجاءت التسمية موفقة ، ومن حق القارىء ان يعرف شيئا عن « راعوث » هذه !

« راعوث المؤابية » سفر ورد في التوراة وخلاصة ما جاء فيه ان جوعا عظيما اجتاح ارض يهوذ فهاجرت راعوث مع من هاجر من اهلها الى ارض مؤآب (الكرك اليوم) طلبا للرزق وبعد ان زالت المجاعة رجعت راعوث وذووها الى بيت لحم في موسم الحصاد وهناك شرعت في التقاط السنابل من حقول « بوعز » الغني فأحسن معاملتها واعطاها ما التقطته من شمائل واخيرا اتخذها زوجة له ورزق منها اولادا .

من أشهر طوابع شفيق معلوف الالمام بالتاريخ قديمه وحديثه والوقوف على اساطيره وأشهر حوادثه ، فيختار لدواوينه الماتعة اسماء رائعة يخلعها على تلك الفرائد ، وينسج من ماجريات التاريخ شعرا يتميز بالمعنى الرقيق ، واللفظ الرشيق !

اول قصائد سنابل راعوث « نداء المجاديف » وفيها يصوّر شفيق البواخر التي تحمل عشرات الشبان من لبنان وسورية وفلسطين والاردن الى المجاهل النائية طلبا للرزق ، وهربا من الظلم ، وتطلعا للحرية ويصور حبال الدموع التي تنحدر من مآقي الامهات والشقيقات والزوجات لاغتراب اعزة عليهن اغترابا مجهول المصير :

مجاذيف عبر اليم طاب لها صدى   يرجعه صفق على الموج هادىء
متى رحن يشققن العباب تصاعدت   من القعر تجري خلفهن اللآلىء
يدفعن فتيانا تذريهم النوى   على كل افق والرياح تناوىء
فوالله ما ادري أعند وداعهم   تئن الصواري ام تئن المرافىء ؟

اطلوا بوجه من كوى السفن واجم   كأني به دمع بكته الشواطىء !

وقبل هذا بسنوات نادى شفيق الشطر المغترب للاياب الى مدارج طفولته ، مؤكدا ان الخيرات والارزاق التي جناها المغتربون لا تعدل دموع الامهات :

حان ان تخنقوا الشراع وتطووا   علم الفتح بعد طول الجهاد
(ذهب) الارض ، يعلم الله ، ما   يعدله غير (تربة) الاجداد

وافزعت شفيقا « قنبلة هورشيما » التي فجّرها الانسان في وجه اخيه الانسان فحصدت الوفا من الآمنين المطمئنين ، وما زالت ذراتها تتفاعل في اعماق البحار وتحدث في قيعانها ثغرات وندوبا :

سلبوا الشمس قطعة من لظاها   ورموها على العباد تدور
فجروها ملء الفضاء ذريرات   تشظى شرارها المستطير
اغيوث سوداء تنهل ام نار   تبيد الجسوم ام زمهرير
يا لها من غمامة ساقها الحقد   فجاشت بما تكن الصدور
أين صادوم ؟ أين اعمدة الملح   اذا ما تلفت المذعور ؟
غضب الله صار في حوزة العبد   فأين الله ألقوي القدير ؟

وهل تظن ان المهجر ببريقه انسى شفيقا الشاعر الاسمر البادية وعرارها ، ولهجاتها واسمارها ؟

لا ... ان شفيقا ابن شيخ مؤرخي العرب المرحوم عيسى اسكندر المعلوف ما برح حنانا للبادية ، مشدودا الى اهلها ، مفتونا بصحرائها ، فاذا ما زار مضارب البدو ورأى « المهباج » يرسل دقاته بنغم متساوق قال بلسان الفتى البدوي للحسناء البدوية :

قومي نشف قهوا   عا دقة المهبج
قومي لنحصد سوا   وندرس على النورج
ظهر الخيام انطوى   وتحرك الهودج
وشد الرحال الظعن   والنار مطفيه

واذا فاخر الاوربيون بأنهم بناة المدنية ورواد الحضارة قال لهم : (لا !) ورد على من يسأله : « اين حضارة البدو ؟ » بقوله :

يا سائل البدو عن حضارتهم   ينبيك عنها الصوان والحجر
كل الحضارات في بداءتها   بدو وفي اوج عزها حضر !

واذا لمح شفيق الجرد العتاق حدا لمهره العربي وهو ممتط صهوته :

مهري يشق الدجى بمنكبه   كأنه السيل في تحادره
تجفل النيرات وثبته   ويوقظ الشمس وقع حافره !

لا دار لي يا جواد فاجر وطر   واضرب بنعليك دارة الافق
شق غبار الصحراء ويحك او   شق غبار النجوم وانطلق
أرى الليالي تنقض هاوية   علي كالفول ناشب الظفر
أنا الذي لم امد بعد يدي   فأرتوي من وليمة العمر

طالت طريقي وعز آخرها   فرحت اهوي صريع اعيائي
فتت رياح السموم في عضدي   ووسدتني رمال صحرائي

هويت ... لكن في العروق دما   ثار على نفسه لكي يثبا
روح كروحي التي نفحت بها   هيهات تكبو اذا الجواد كبا

يا روح طيري ، لك الفضاء مدى   ولي من الرمل خير مضطجع
خذي من الليل كل انجمه   أما دجى الليل فاتركيه معي !

جوبي حزون الصحراء واندفعي   مغذة في صميم مجهلها
ولا تردي عنها عنانك أو   آخرها ينتهي بأولها

الناحية الانسانية في شفيق الانسان الشاعر وفي مجنحاته طاقات

من الحساسية والرهافة ، فتراه يشعر شعوراً انسانياً مع ((الفلاح)) و ((الراعي)) و ((البستاني)) و ((الورّاق)) و ((ساعي البريد)) ويتفاعل مع كل شقي صاحب حرفة ، فسجّل للاول فضله بقوله :

وفى الحياة ديونها كرما وما وفيت ديونه
ومضى تشق الارض قبضته بعزم لا يخونه
عرق الجهاد همى على عينيه فانطبقت جفونه
ضنت عليه بالدموع عيونه فبكى جبينه !

وصوّر الثاني وما يعتلج في صدره بقوله :

مشى وفي كفه هراوته وهو وراء القطيع مكتئب
ونايه من خلال جعبته يمد عنقا كمن له أرب
مشرد الفكر لا يشوب اذا ينبح كلب او نعجة تثب
وطالما في المروج نعجته طاب على كفه لها العشب
بالامس قالوا له حبيبته زُفّت اليها الحلي والذهب
فلم ينم ليله ولا انطبقت حتى على طيفها له هدب
انى مشى في الحقول لاح له جفن ووشم ومبسم عذب
فاقتعد الصخر ثائرا ومضى يهذي ويشكو ودمعه صبب
يقول : أين التي بها ظفروا ؟ ألم يصبها من لوعتي شجب ؟
أين التي انزعت فمي قبلا وهي على ساعدي تضطرب ؟
قبلتها البكر من فمي سرقت وقلبها من يدي مغتصب !
فهل تراها بعد الذي وهبت ابقت لغيري في الحب ما تهب
مال على نايه ومقلته يشب من خلف مائها لهب
حتى اذا بث ما يجيش به غص بما في ضلوعه القصب
كانما الجرح مهجته كان على نايه له ثقب
فالناي لا ياتلي على فمه يعب من قلبه وينتحب !

ومر شفيق بالثالث فاستهواه انكبابه على غراسة اللدنات وصور ذلك المنظر الساحر تصوير شاعر قدّر الجهد وبارك العرق الذي يفصده جبين ذلك البستاني العامل في صمت وهدوء :

مررت به يكب على غراس لوين العنق للعصف الشديد
فيرفعهن فوق الارض كيما ينحيهن من ذل السجود
بصرت به ينقل راحتيه على الاغراس من عود لعود
فينزع سلخة من كل غصن ويدفنها لتولد من جديد !
يداه على التراب ومقلتاه معلقتان بالافق البعيد !

في ((سنابل راعوث)) عشرات اللوحات الفنية التي وشّتها ريشة شفيق معلوف ويتعذر الحديث عن كل منها حديثا مطولا لكني سأشير الى ثلاث منها ، واول هذه اللوحات وصف لمغارة جعيتا في لبنان وهي تستثير ذهول واعجاب كل زائر بحبالها المائية المجمدة المتدلاة من سقفها وجوانبها وحناياها :

سطع الليل ، وغنى الحجر أهم الجن ، وهذي عبقر
يا لها اغنية من حجر انصت القلب لها والبصر
صدم الضوء بها الدهر على غرة ، فابيض منه الشعر
ما الذي جمّد في اغوارنا من غبار السيل ما ينتثر
غص حلق الكهف بالبلور أم هو طوف من سنا ينهمر ؟ !
أي نقر ذاك في صهريجه أهو ازميل الليالي ينقر ؟
أي احلام نجوم هذه هبطت في قلبه تنصهر ؟
يا لها آلهة قد لقيت في نهود الصخر ما تعتصر
فترامت فوقها حتى اذا فنيت فيها ، تعامى القدر !

وثاني هذه اللوحات ((غرناطة)) هذا الاثر العربي الرائع الذي ما مر به شاعر عربي الا وفجّر الآهات ، وارسل العبرات ، حزنا على مجد اثيل ولّى :

لا عين غرناطة ولا أثر دلت فهيهات تنفع الذكر
أهكذا النسر بعد رفعته الى حضيض الهوان ينحدر ؟ !
عابوك لما عدت محمحمة فيك جياد الاعارب الضمر
هويت والمجد قبل مصرعه ودع قوما من حولك اندحروا
ذلك مجد حضنته زمنا واغتاله فوق حضنك القدر
فكنت غرناطة على فمه آخر ما قال وهو يحتضر !

ولئن تعذر الحديث عن كل لوحة من لوحات ((سنابل راعوث)) فالوفاء للشاعر الموهوب المرحوم فوزي معلوف يحتم عليّ التعريج على ابيات شقيقه شفيق يوم نصب تمثاله في زحلة وازيح الستار عنه بمهرجان فخم جاءه شفيق من البرازيل وفي ختام الحفلة وقف شاعرنا بقامته الفارعة وخاطب تمثال ((فوزي)) بأبيات فجرت دموع من اموا ذلك المهرجان وكانت حشاشة الشاعر المفجوع باخ نابغة هيهات ان يجود الزمان على لغة الضاد بمثله :

((فوزي)) ومالي في الخطوب يدان ما هكذا الاخوان يلتقيان !
قربت صدري للعناق فلم اقع الا على قطع من الصوان
هشت لك الازمان قبل ولادها فاخلع زمانا واتشح بزمان
لله نصبك فهو اخلد بردة في الارض ينسجها الخلود الفاني!
نصب خفضت له الجفون كأنما نصبت حجارته على اجفاني !

لو شاء شفيق معلوف ان يعتلي مكانه في سدرة المنتهى ولقي ((رضوان)) حارس الفردوس وهزّ له بأثريه الخالدين ((عبقر)) و ((سنابل راعوث)) لعرفه من توه ولفتح له الرتاج على مصراعيه وقال له : تفضل يا ((شاعر عبقر)) ! فأثراك اللذان تحملهما يمينك هما (جواز سفر) لشاعر ملأ الدنيا شدوا وتغريدا فعرفت السماء قدره ، وأحلته مكانته اللائقة به وتوّجت هامته باكليل الظفر !

عمان البدوي الملثم

●

مديحة

مجموعة قصص ـ تاليف عباس خضر ـ (؟) صفحة ـ مطبعة (؟)

ان المذاهب الادبية كثيرة منها الفن للفن والفن للحياة ، وغير ذلك من المذاهب التي تشيع فترة معينة حسب ظروف المجتمع ، وهذه الظروف قد تكون سياسية او اجتماعية ولكنا نرى ان بعض هذه المذاهب يكتب لها البقاء والاستمرار ويكتب للبعض الاخر الاختفاء وذلك لانها مذاهب مستوردة من الغرب وغير متفقة مع واقعنا الذي نعيشه ... ولقد غيرت ثورتنا مجتمعنا تغييرا جذريا يتناسب واهدافها من خلق مجتمع جديد يسود افراده التعاون وخلق المواطن الصالح المتفهم لمبادىء مجتمعه الجديد المتفاعل معها ، وهنا يأخذ الادب دوره في معركة البناء وفي خدمة المجتمع ، ويتحتم على الادباء تجنيد اقلامهم باخلاص لخدمة رسالة المجتمع الجديد ، وليس معنى ذلك ان يخرجوا لنا انتاجا مسفا بعيدا كل البعد عن الجودة الفنية ومثل هذا الادب المملوء بالطبل والزمر يسمى بأدب الدعاية او الادب الهاتف ولقد رأينا من هذا الانتاج الكثير ، ولم يكتب له البقاء ... ولكن على الرغم من ذلك نجد ادباء تفهموا رسالتهم واحسوا بمسئوليتهم تجاه انفسهم وتجاه مجتمعهم فعاشوا في احداثه وتفهموها جيدا وتفاعلوا معها فأخرجوا لنا ادبا عظيما في جودته الفنية متضمنا افكارا بناءة جديدة ، فتناولوا في انتاجهم احداث الماضي لتكون عبرة وتنير الطريق امامنا في مجتمعنا الجديد، كما تناولوا الاحداث الجارية ليبرزوا صورة المجتمع الجديد ... ومن هؤلاء الادباء الذين تفهموا رسالة الادب ـ الحقيقية وما يجب ان يكون عليه الاديب من اخلاص في خدمة المجتمع الاستاذ عباس خضر ، لقد اثبت في مجموعته الثانية (مديحة) التي صدرت له حديثا انه اديب انسان ، فهو يكشف عما في النفس البشرية من حب وكره وانانية واستغلال وضعف وقوة ، انه يسجل هذه الانفعالات تسجيلا يتجلى فيه الصدق الفني ، انه يصور أحاسيس الانسان العادي ... ويقدم لنا نماذج حية قريبة منا نلمسها

في حياتنا اليومية ... وما (الليلياتشو) الا انسان عادي نراه كل يوم فالتقطه المؤلف وغاص في اعماقه وصوره في لحظة ضعيفة امام اغراء الورثة ذات الخمسة جنيهات ثم صور انتصاره اخيرا علما هذا الضعف لانه انسان خير — فالانسان الخير هو ذلك الانسان الذي تتغلب عوامل الخير فيه على عوامل الشر ...

كما قدم في (الكلب واللصوص) صورة اخرى كشف فيها عن القدر الذي يسيطر على النفوس الضعيفة التي لا تقيم وزنا للصداقات ويتمثل ذلك في شخصية (ابراهيم) اللص الذي اراد ان يسرق نقود صديقه وزميله في العمل (سيد) ولكن (ركس) وهو اسم الكلب الذي يملكه (سيد) يضيع على اللص الفرصة ويكشف امره ويروح ركس ضحية لرصاصة غادرة اطلقها عليه أحد اعوان (ابراهيم) ... واخيرا يشعر ابراهيم بجرمه ويعضه الندم ويعرف ان الكلب افضل منه ويتمثل ذلك في حديث الشرطي له :

« ابراهيم الجندي .. ؟ والله وقعت يا ابراهيم ... أصلك عرفت تنفد من حوادثك في الشركة ... لكن ادي انت وقعت .. »

وحانت منه التفاتة الى جثة الكلب تتابع كلامه وهو يهز رأسه آسفا: يا ريت الرصاصة جت فيك انت يا ابراهيم ..

ونكس ابراهيم رأسه وهو يقول في نفسه : يا ريت » .

فكلمة (يا ريت) عبّر بها المؤلف عن معاني كثيرة جالت في نفس ابراهيم حول شعوره بخطئه وشعوره بأن الكلب افضل منه ... وتتجلى المشاعر الابوية الصادقة في قصة (مديحة) ومع انها تجربة ذاتية الا انه ابرزها في صورة عامة عند كل الاباء تجاه ابنائهم على لسان السائق في حواره بعدما زالت الكلفة بينه وبين الاستاذ عبد العزيز والد مديحة، واحس انهما شخص واحد وحدث بينهما المشاعر الابوية .. «قال السائق وهو يدوس بقدمه مفتاح البنزين ويشعر بسرور خفي لان الحاجز الذي كان يحس به بينه وبين الاستاذ عبد العزيز قد ذاب ..

— يا سلام يا استاذ

— عبد العزيز

— يا سلام يا استاذ عبد العزيز ... بنات حلوين

— بنات مين يا اسطى ؟

— بنت حضرتك ، وبنتي — التلميذه اللي كانت بتعيط والتلميذه اللي وصلتها للجنة الجيزه ، والدكتوره اللي بتشتغل في طنطا ، والمراقبة .

— كلهم حلوين .

— حلوين ازاي

— حلوين مش بالزواق وما اشبه ... لا حلوين بالمعنى .

هكذا استطاع ان يزيل الحواجز بين عبد العزيز الاستاذ الذي يمثل طبقة معينة وبين السائق الذي يمثل طبقة أخرى ، أحس السائق بشعوره بانه قريب من هذا الاستاذ لان له ابنة مثل ابنته .

والقصة القصيرة تعتمد على الايجاز بدلا من الاسهاب في الشرح والتلميح بدلا من الافصاح واننا نلمس ذلك في كتابته فهو يستعمل الكلمة الواحدة التي تشع معاني كثيرة وتغني عن الوصف الطويل ، ففي قصة (مديحة) يخاطب الاستاذ عبد العزيز ابنته عندما وقف يستعجلها :

« ياللّه يا مديحة يا حبيبتي .. التاكس زمانه جاي » ثم يصور شعور الاب في استعماله كلمة « يا حبيبتي » فيقول : لم يكن متعـودا ان يناديها « يا حبيبتي » كما تفعل أمها ، لولا انها الان ضعيفة من اثر حمى « البراتفود » التي اصابت المسكينة اخيرا ولم تتركها الا منهوكة القوى على باب الامتحان » فكلمة يا حبيبتي مشحونة بعاطفة جياشة ، بحنان ابوي ، وهذه الكلمة أغنت عن الاسهاب في وصف عاطفة الاب . ثم في قصة « دروس خصوصية يضع مبدأ يسير عليه الناس ويبين انهم لو ساروا عليه لما تعقدت الامور ، فيقول على لسان المدرس : لا .... لا يمكننا جميعا — الدكتور والناظر وانا وامثالنا — ان نؤدي اعمالنا دون ان نضطر الناس الى ان يدفعوا مقابل ما من حقهم أن ينالوه من غير دفع ... ونكلف بعضهم ما لا يطيق ...

وفي بقية القصص تلميذة زمان ، « اختفاء جليله » وزوج المدرسة و (بداية) و (ابو شنب) وقصة عابد وعايدة يتناول فيها المؤلف عادة المجتمع ومظاهر الفساد في العهد الماضي ، كما يصور احوال اللاجئين في قصة (عابد وعايده) ولكنه لم يعطنا صورة واضحة تجعلنا نتعاطف مع هؤلاء اللاجئين ، فهذه القصة لم تأت في قوة القصص الاخرى ومستواها .

واخيرا ، في هذه المجموعة يرمي فيها المؤلف الى الكشف عن الافات التي تنخر في جسم المجتمع ويسبر غور النفس البشرية ، ولقد بذل الاستاذ المؤلف جهدا في هذه المجموعة فجاءت احسن من مجموعته الاولى وهذه ميزة الاديب الاصيل فهو يسير دائما من حسن الى احسن وانا لننتظر منه انتاجا اخر يفوق الانتاج السابق .

القاهرة — ابراهيم عيسوي سعفان

•

في بلادي الجميلة

تأليف الدكتوره نعمات احمد فؤاد — (؟) صفحة — مطبعة (؟)

« في بلادي الجميلة » هو الكتاب الحادي عشر للكاتبة الاديبة الدكتوره نعمات فؤاد ، التي عرِّفت بها من قبل كتبها ودراساتها القيمة .. من مثل « ادب المازني » « ناجي الشاعر » « شعب وشاعر » « مصر في المعركة » « الى ابنتي » . ثم كتابها « النيل في الادب المصري » . وقد قدمه الاستاذ احمد حسن الزيات بمقدمة ضافية ، تحدث فيها عن الادب النسوي المعاصر عامة ، وادب نعمات فؤاد خاصة ..

ونعمات فؤاد لا تستطيع وصفها بأبلغ مما وصفت هي به بعض النماذج من الكتاب ، فقالت : « وهب نفسه للكتابة ، ووهبت نفسها له ، هي صاحبته والولد ، لا يكاد يخلو الى نفسه او الى الناس الا وهو على موعد معها ، يعود اليها فيه . على انه في خلوه الظاهر لا يخلو حسه وشعوره منها ، فهو مع الناس تعيش معه فكرة في عقله ، او صورة في عينه ، او مسئولية في ضميره ، او خاطرا في خياله ، او خلجة في شعوره ، لا يذكره الناس — وما اكثر ما يذكرونه — الا مقترنا على لسانهم بكتاب جديد ، او رأي جديد ، او فتح جديد في عالم الكتابة ، عاله ، يراه الناس وحده ، ويرى نفسه في جمع لا تمل صحبته ، ولا تذم رفقته ، يعيشون معه في بيته ، ويعيش معهم في نتاجهم ، يطاون عليه أينما يخطو من زجاج المكتبات العديدة المنتشرة في داره » .

والمؤلفة الكاتبة شديدة الايمان بالادب ، بالكتابة ، ايمانها بالعلم والثقافة .. ومن ثم فقد اتخذت الكتابة فنا ، تقبل عليه ، وتجوده ، وتبالغ في التانق فيه . وقد سارت في طريق الصناعة الفنية المشرقة الحلوة في اسلوبها ، وان قادها ذلك في بعض الاحايين الى لون من المبالغة او الاطناب ..

والمؤلفة لها عين مصور ، وذهن وصاف ، وعقل مفكر ، وخيال شاعر .. وصورها الفنية واوصافها ، مع دقتها ، لا تخلو من تكبير الوهم ، وتجسيم الخيال ، وهذه كلها هي السمة الاولى الغالبة الواضحة في هذا الكتاب .

ومع ايمان الدكتورة بالادب والكتابة ، فهي مؤمنة عميقة الايمان ببلادها ، شديدة الحب لوطنها الباقي الخالد مصر ، كتبت عنه روائع الفصول ، وروائع المؤلفات ، من مثل : مصر في المعركة ، النيل في الادب المصري . وفي فصل من فصول هذا الكتاب الذي نقدمه لقراء « الاديب » تقول عن وطنها : « هذه الارض ارضي ، وهذه الجنة بلدي ، وهذا النعيم وطني ، وهذا النهر نهري ، وهذا الصفو سمائي ، وهذه الدور دوري ، وهذا الافق كله نوري » .. وتقول وهي في رحلة لها

خارج وطنها مصر : « ويلي من غربتي ، وويلي من أوهامي ، أين منا وجهك السمح الودود ؟ اين منا ارضك ، اين منا نهرك ، اين منا خيرك اين منا اهلك ، اين منا امنك وسلامك ؟» .. وهذا الحب ، بل الايمان، واضح في اجلى صورة في فصلها « في الهرم » وهـو أحـد فصل الكتاب . وفي فصلها عن « دنشواي » تقول عن وطنها « الا انه وطني ، وطني القوي حتى في ضعفه ، ما اروعه ، ما ارفعه ، هكذا سواه ربي ، فابدعه ، عزيزا لا يعرف الضعة ، واشرق عليه ووقف في الروع معه ، ما اروعه ، وطني ما اروعه » ، وهـو شعر منثـور ، او نثر شعري .. وحب الوطن ، والايمان به ، سمة اخرى ثانية ، غالبـة على الكتاب ، شديدة الوضوح فيه .

والحقيقة ان فصول الكتاب كلها تنطق بحب عميق لمصر ، ومشاعر وفية للوطن .. هذه الفصول التسعة عشرة التي تحدثنا فيهـا عن : الورد ، البيت ، الريف ، المدرسة ، الطريق ، المحطة ، الليل ، المستشفى، المقطم ، العين ، الهرم ، الكتابة والكتاب ، القفص الخالي ، ولدي ، الملهى ، الفرح ، القصور ، دنشواي .. وهي كلها فصول كتبتها المؤلفة الجليلة من وحي وطنها وبلادها ، أما فصلها في البعد فكتبته من وحي مشاعرها وهي في رحلتها الى مهرجان الشعر في دمشق عام ١٩٦١ قبيل الحركة الانفصالية ، ولان مضمونه وصف اطراف والوان مـن رحلتها ، والوان اخرى من مشاعرها ، وهي بعيدة عن وطنها ، فقـد رأت ربطه ببقية موضوعات الكتاب وفصوله ، فجعلت عنوانه « في البعد » ، وهي تقصد في البعد عن وطنها وبلادها ، وضمنته مشاعرها المرهفة نحو بلادها في فترة كانت من أقسى الفترات في تاريخ العرب والعروبة، والحركة الانفصالية التي قامت في اواخر سبتمبر عام ١٩٦١ جعلت الرحلة كانها خارج بلادها ، وجعلت المؤلفة تشعر بلوعة الغربة والبعد عن وطنها ، وان لم تكن خارج الوطن العربي على الحقيقة ..

والسمة الثالثة لفصول الكتاب هي حب الامومة وتقديرها والوفـاء لها ، والاخلاص لمسئولياتها ، وتظهر هذه الروح واضحة في فصـول الكتاب عامة ، وفي الفصول : في الورد ، في بيتي ، في المدرسة ، الى ولدي ، في القفص الخالي ، خاصة ، وأنظر اليها تقول في فصلها الرائع الجميل « في بيتي » : ان البيت ـ في رأي المرأة ايذان بالمسئولية ، وانتفاء للتبعة ، شعور بالملكية ، احساس بالكرامة ، بالرشد ، بالثقة ، بالحياة . وتقول : البيت بالنسبة الى الابناء الحماية والجاه والوفرة وحنان الام وعز الاب ، والاصل الذي يتفرعون منه ، والجذر الذي يمدهم بالغذاء والبناء ، انه الساعد الذي يتكئون عليه ، والحب الذي يركنون اليه ، والصدر الذي يدفنون آلامهم فيه . وتقول في فصلها الجميل « في المدرسة » عن الابناء : بانهم نفس من انفاس الله ، وروح من روح الملائكة ، انهم نور ايامنا ، انهم اشراق حياتنا ، انهم سعد حاضرنا ، رجاء مستقبلنا .

ولشد ما تأثرت وانا أقرأ لها في فصلها « الى ولدي » وهي تقول : لن انسى ما حييت ذلك اليوم الذي عادت فيه اختك « حنان » مـن المدرسة تبكي في ألم اكبر من طفولتها ، وجن قلبي ، وحنـوت عليها اسألها ، فاذا بدموعها تروي قصة : لقد كتبت المدرسة فيما تكتب من أسئلة : كم اختا لك ؟ كم اخا لك ؟

ـ وماذا في هذا يا صغيرتي ؟

ـ لقد اجاب الفصل كله على السؤال الثاني الا انا ، لم اعرف كيف تكون الاجابة ..

ـ اجيبي : ليس لي اخوة .

فعادت تبكي من جديد وهي تقول في سذاجة حبيبة : ولكن المدرسة لا تصدقني ، كل البنات لهم اخ .. وبكيت انا واحسست احساس المذنب من غير ذنب .

انك وحدك يا رب تهب من تشاء الاناث وتهب من تشاء الذكور .
وتقول في موضع اخر : كنت انت يا بني الولد ، واصبحت انت السند ، رأى فيك والدك امتدادا لعمره ، وفرعا لاصله ، ورسما من رسمه . ورأيت انا فيك عز امومتي ، وتحقيق امنيتي ، ونور ايامي ، ومصداق احلامي ، ورضا عمري ، والشوق والمنى .

وتصف العروس في زفة العرس في فصلها « فـي الفرح » وصفا صادقا دقيقا رائعا جميلا ، وصفا شعريا ، واقرأ لها تقول : كانت في اقبالها عليه تفري بالابتسام ، وتفري بالحب ، كانت حلوة كالسكرة ، مرحة كالعصفور ، سقاه الندى ، وغذاه الضياء .

وروح الامومة والزوجية واضحة كل الوضوح في فصول الكتاب ، وهي روح المرأة الاديبة المخلصة لرسالتها ، ولمسئولياتها ، معا .. ومع هذه السمات كلها ، تتبدى روح المرأة المحافظة المتدينة المؤمنة بربها وشرفها وكرامتها وبدينها ، ايمانا عميق الجذور ، وثيق الاسباب .

هل نقول : ان الكتاب امتداد لحديث عيسى بن هشام فـي النثر الادبي ؟ وان كان خاليا من روح النقد السياسي والاجتماعي الذي نراه عند المويلحي ، هل نقول : انه نسيج من مذاهب المنفلوطي وطه حسين والزيات والمازني في الكتابة ؟ هل نقول ! ان فيه قبسا من تفكير العقاد؟ هل نذهب الى ان اسلوب مي وبنت الشاطىء وسهير القلماوي تجمعت عناصره وخيوطه في اسلوب نعمات فؤاد ؟ قد يكون ذلك كله جميعا هو الاقرب الى الصواب . والحقيقة الثابتة في اسلوب المؤلفة انه اسلوب بليغ مشرق الديباجة ، حلو الالفاظ ، موسيقي الصور دقيقها ، يجمع الى جمال الاداء ، ورصانة الاسلوب ، العناية بالفكرة ، الفكرة والصورة فيه مترابطتان متكافئتان ، لا يطغى أحدهما على الاخر ، الذوق فيه موهبة ، والوشي طبع ، والتفويف فيه ، والتنسيق ملكة ، وقد استعرنا هنا كلماتها في وصف اسلوب بعض الكتاب المعاصرين ، ولعله الاستاذ الكبير احمد حسن الزيات . ونستعير كذلك وصفها لاسلوب كاتب اخر لم تسمه ايضا ، ولعله العقاد ، اذ قالت فيه : « خير من تتمثل فيه دقة اللفظ العربي ومطابقته للفكرة » .

وبعد فان هذا الكتاب انتصار لفن الاسلوب ، لمذهب الكلاسيكيين فيه، من حيث اهتمامه بالبلاغة ، وبدقة النقد للالفاظ ، مـع شدة العناية بالموسيقى والصنعة الفنية ، والخيال الشعري ، ومع وضوح العاطفـة وقوتها وصدقها فيه . وان كان مع ذلك غنيا بالفكرة وتقديرها والايمان بها .. ومذهب الدكتورة نعمات في النثر الادبي ابتدات ملامحه تتضح في كتابها « الى ابنتي » الذي ظهر عام ١٩٥٦ ، ثم في كتابها « مصر في المعركة » الذي ظهر عام ١٩٥٧ ، واستكمل شتى عناصره ومختلـف مقومات القيمة فيه في هذا الكتاب ، الذي يعد من قمم النثر الوصفي ، ومن روائع الادب النسوي المعاصر كما قال بحق الاستاذ الكبير احمد حسن الزيات .

القاهرة — محمد عبد المنعم خفاجي



الانسان المتمرد ـ تاليف البير كامو ـ ترجمة نهاد رضا ـ ٣٩٢ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات عويدات ببيروت ـ مطبعة كرم ببيروت .

● الوان من القصة القصيرة في الادب الامريكي ـ نقد وترجمة عباس محمود العقاد ـ طبعة ثانية ـ ٣٧٢ صفحة ـ منشورات مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة ـ مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر بالقاهرة .

● من خلال منظار الاوبرا ـ تاليف ايرين جاس وهربرت فاينشتوك ـ ترجمة محمد رشاد بدران ـ تقديم الدكتور ثروت عكاشه ـ مصمم الغلاف محمد سليمان التهامي ـ ٢٦٤ صفحة ـ منشورات مكتبة الانجلو المصرية (؟) ـ مطبعة مصر بالقاهرة .

● دولة الادارة : مقدمة للبيروقراطية ، تحليل مقارن للعمل الحكومي ـ تاليف فريتز مورشتين ماركس ـ ترجمة ابراهيم علي البرلسي ـ مراجعة وتقديم الدكتور محمد توفيق رمزي ـ مصمم الغلاف محمد سليمان التهامي ـ ٢٨٠ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة ـ مطبعة مصر بالقاهرة .

● تدريب قادة الجماعات ـ تحرير جمعية تعليم الكبار الامريكية ـ ترجمة الدكتور محمد عماد الدين اسماعيل ـ تقديم العميد سيد عبد الحميد مرسي ـ ٨٠ صفحة ـ منشورات دار القلم بالقاهرة ـ مطابع دار القلم بالقاهرة .

● القصة العراقية قديما وحديثا ـ تاليف جعفر الخليلي ـ ٢٧٠ صفحة ـ حجم كبير ـ مطبعة الانصاف ببيروت .

● التربية الحديثة ـ تاليف انجيلا ميديسي ـ ترجمة علي شاهين ـ ١٨٤ صفحة ـ منشورات عويدات بيروت ـ مطبعة قلفاط بيروت .

● حمص أم الحجار السود ـ تاليف ساطع محلي ـ ١٦٠ صفحة مصور ـ مطابع دار المنار بدمشق .

● قصة القرحة ، القرحة المعوية الاثني عشرية في جهاز الهضم ـ تاليف الدكتور منذر الدقاق عضو المجمع الامريكي لامراض جهاز الهضم ـ ١٧٢ صفحة ـ حجم كبير ـ مصور ـ المطبعة الهاشمية بدمشق .

● خمر وشعر ـ تاليف سامي الكيالي ـ ١٨٦ صفحة ـ منشورات دار الرائد بحلب ـ مطبعة الفنون بحلب .

● شحارير بيضاء ـ مجموعة شعرية ـ مصطفى احمد النجار ـ ٥٨ صفحة ـ منشورات دار الرائد بحلب ـ مطبعة الفنون بحلب .

● التنشئة الوطنية الانسانية ـ مطبوعات وزارة الدفاع الوطني ، قيادة الجيش اللبناني ـ الاخراج والرسوم لاسماعيل شموط ـ ٥٤٦ صفحة ـ مزين بالصور والرسوم ـ مطابع قرطباوي في عاليه لبنان .

● ادارة اعمال المزرعة ـ تاليف رايموند ر. بينيكي ـ ترجمة محمد عبد الخالق دراز ـ مراجعة حسين عزت ـ مراجعة محمد السيد روحه ـ ٦٨٠ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار المعرفة بالقاهرة ـ مطبعة مصر (؟)

● كيف نستخدم الوسائل التعليمية ـ تحرير جمعية تعليم الكبار الامريكية ـ ترجمة فوزية احمد جاد ـ مراجعة وتقديم العميد سيد عبد الحميد مرسي ـ ١٠٤ صفحة ـ منشورات دار القلم بالقاهرة ـ مطابع دار القلم بالقاهرة .

● فنون الحياة ـ اشرف على التحرير جلبرت هايت ـ ترجمة الدكتور ابراهيم حافظ ـ مصمم الغلاف البرت سامي ـ ٢٤٨ صفحة ـ منشورات مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة ـ دار الطباعة الحديثة (؟)

● الاسكندر الاكبر ـ تاليف جون جنتر ـ ترجمة فاروق حافظ القاضي ـ مراجعة وتقديم الدكتور زكي نجيب محمود ـ مصمم الغلاف البرت سامي ـ ١٣٦ صفحة ـ منشورات مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة ـ مؤسسة طباعة الالوان المتحدة بالقاهرة .

● الحشرات ـ تاليف مرجريت ويليامسون ـ ترجمة الدكتور احمد عماد الدين ابو النصر ـ ٤٤ صفحة ـ حجم كبير ـ مصور ـ منشورات دار المعارف بمصر ـ مطابع دار المعارف بمصر .

● المقامات ـ تاليف الدكتور عبد السلام العجيلي ـ ٩٨ صفحة ـ المطبعة الهاشمية بدمشق

● Mechanical Man : The Story of Machines — by Beril Becker — Illustrated by Gyula Zilzer — 168 pages — Washington Square Press, New York.

● Electricity : The Story of Power — by Arnold Mandelbaum — Illustrated by Eva Cellini — 148 pages — Washington Square Press, New York.

● Countdown : The Story of Cape Canaveral — by William Roy Shelton — Illustrated — 178 pages — Washington Square Press, New York.

● A New Continent and a New Nation — by Paul M. Angle — 208 pages — Fawcett Publications, New York, N.Y.

● The New Nation Grows — by Paul M. Angle — 208 pages — Fawcett Publications, New York, N.Y.

● The Nation Divided — by Paul M. Angle — 240 pages — Fawcett Publications, New York, N.Y.

● The Making of a World Power — by Paul M. Angle — 224 pages — Fawcett Publications, New York, N.Y.

● The Uneasy World — by Paul M. Angle — 240 pages — Fawcett Publications, New York, N.Y.

● Men of Science in America — by Bernard Jaffe — 352 pages — Popular Library, New York.

● The Space Guidebook — by William J. Weiser — 256 pages — Popular Library, New York.

● As We Are — by Henry Brandon — 272 pages — Popular Library, New York.



نعينا في عددنا السابق صديقنا الوفي الدكتور بشر فارس . وننقل في جولة الاديب لهذا العدد ، بعض ما قيل في الشاعر الروائي ، الباحث المحقق ، والناقد الشارح ، الذي كثيرا ما اضاءت نفثاته المبدعة صفحات الاديب منذ نشاتها :

بشر فارس

اديب عالم افتقدناه في الحادي والعشرين من فبراير ١٩٦٣ اثر نوبة قلبية مفاجئة لم تمهله الا ساعات قليلة ، فمات عن ست وخمسين سنة قضاها في طلب العلم والادب وفي انتاجهما . ذلك هو الدكتور بشر فارس ، السكرتير الفخري للمجمع العلمي المصري ، صاحب الرسالات الكثيرة في اللغويات العربية وفي التصوير الاسلامي ، وصاحب الاثار الفنية الشحيحة وهي مسرحية « مفرق الطريق » ومسرحية « جبهة الغيب » ومجموعة القصص القصيرة التي تحمل عنوان «سوء تفاهم» .

وقد انشأ بشر فارس لونا من الادب اثار كثيراً من التساؤل بين النقاد والادباء لفرط ما تفرد به من خصائص قلما تتكرر في سواه ولا سيما من المعاصرين ، فقد تفرد باسلوب شديد التحكيك مفرط في التانق الى حد الاغراب ، كما تفرد بفكر شديد التحكيك مفرط في التانق الى حد الاغراب . ولكن من يتأمل تكوينه وثقافته يجد التفسير الكافي لهذا الاسلوب وهذا الفكر الذي هو بشر فارس .

والى باريس قصد بشر فارس ليدرس الادب العربي في السوربون ، فتعلم على المستشرق المعروف جود فروا ديمومبين وعلى ماسنيون وعلى فوكونيه ، وكان جود فروا ديمومبين هو المشرف مباشرة على دراساته وابحاثه . واعد عليه رسالة في موضوع « العرض عند عرب الجاهلية » حصل بها على الدكتوراه في الاداب عام ١٩٣٢ . وقد طبعت هذه الرسالة في نفس العام كالمألوف في رسائل الدكتوراه التي تقدم الى جامعة باريس ، وقدم لها استاذه ديمومبين .

وفي ١٩٣٦ نشرت له طائفة من الابحاث باللغة الفرنسية في دائرة المعارف الاسلامية .

فلما كان عام ١٩٣٨ ظهر لبشر فارس عن دار المعارف اول عمل ادبي من انشائه هو مسرحيته الاولى « مفرق الطريق » وقد ترجمت هذه المسرحية الى الفرنسية ونشرت في عدد الربيع من مجلة « لا ريفيو تياترال » أي مجلة المسرح . ثم طبعت الترجمة الفرنسية مطبعة مصر في ١٩٥٢ واخرجت هذه المسرحية في مسرح الجيب بباريس على نفقة صاحبها . كذلك ترجمت « مفرق الطريق » الى اللغة الالمانية .

وفي ١٩٤٢ صدرت لبشر فارس مجموعته القصصية الوحيدة « سوء تفاهم » ، وفي عامي ١٩٤٤ ، ١٩٤٥ اشرف بشر فارس على باب «التعقيب والتنقيب» في مجلة المقتطف الشهرية ، واستكتب في هذا الباب اعلام الادب العربي الحديث .

ومنذ عام ١٩٤٨ اتجه بشر فارس الى تخصيص القسم الاكبر من وقته وابحاثه لدراسة التصوير العربي والاسلامي . فنشر له المعهد العلمي الفرنسي للاثار الشرقية بالقاهرة في ١٩٤٨ كتابه « منمنمة دينية تمثل الرسول : من اسلوب التصوير العربي البغدادي » . والكتاب باللغتين العربية والفرنسية . وفي ١٩٥٢ ظهر له كتابه «سر الزخرفة الاسلامية» بالعربية والفرنسية ، وهو ايضا من رسائل المعهد الفرنسي للاثار الشرقية بالقاهرة . وفي ١٩٥٣ حقق بشر فارس « كتاب الترياق : اثر عربي مصور » ، وهو مخطوط يرجع الى عام ٥٩٥للهجرة محفوظ في المكتبة الاهلية بباريس ، وقدم للنص بدراسة وضعها باللغة الفرنسية مع موجز باللغة العربية . وقد نشر له كتاب الترياق المعهد الفرنسي للاثار الشرقية بالقاهرة . وفي ١٩٥٧ نشر له المعهد الفرنسي للاثار الشرقية بدمشق بحثه « كيف زوقت العرب كتب الفلسفة والفقه » وهو دراسة مستفيضة باللغة الفرنسية مع تحقيقات ضافية باللغة العربية وفي ١٩٥٥ ظهر له بحث اخر مستفيض بالفرنسية في مجلة المعهد العلمي المصري موضوعه « الفن القدسي في التصوير الاسلامي » ومعه موجز بالعربية . وكان اخر كتاب نشر له في التصوير الاسلامي كتابه « سوانح مسيحية وملامح اسلامية : حول مخطوط مزوق من القرن السابع الهجري » ، وهذا الكتاب الذي ظهر عام ١٩٦١ هو ايضا من رسائل المعهد الفرنسي للاثار الشرقية بالقاهرة .

ورغم كل هذا الانقطاع لدراسة الاثار الاسلامية والعربية ، كان يعاود بشر فارس حنينه الى الخلق الادبي . فكتب مسرحيته الثانية « جبهة الغيب : احدوثة شرقية في خمس مراحل » وقد نشرتها له دار مجلة « شعر » البيروتية عام ١٩٦٠ اي بعد ست وعشرين سنة من صدور مسرحيته الاولى « مفرق الطريق » . والباحث الذي عرف علم بشر فارس وفنه ، يعرف ان فنه لم يذو فيه لفرط علمه كما يعرف ان العلم فيه لم يتاثر بشخصية الفنان فيه . فان كان بشر فارس الفنان قليل الانتاج في الادب الخالق ، استطاع ان يصمت عشرات السنوات دون ان يتحرج صدره بشيء عارم فيه يطالب صاحبه بالافراج عنه ولا يذيقه طعم الراحة حتى يفرج عنه في قصة أو قصيدة او مسرحية ، فذلك لاسباب لا تتصل بضحولة نبعه وانما تتصل بطبيعة هذا الينبوع الذي لم يكن يتدفق منه ماء مقدس جياش ، وانما كان يسيل منه سائل غريب جميل غامض الالوان غامض القوام غامض المصدر غامض الاثر ، سائل شحيح يجمع في باوري الكاسات وفي صفير القناني افخر الكريستال فلا تعرف ان كان ماء مقطرا أم سلافا صافيا معتقا من عهد كنعان او دواء سحريا لمرض من تلك الامراض النادرة التي لم يرد ذكرها في الكتب ولا تصادفها في الحياة اليومية .

وقد كان بشر فارس لسنوات وسنوات يشغل منصب السكرتير الفخري للمعهد العلمي المصري الذي لا يخاطب الا صفوة الصفوة .

اما رأي العلم فيما قدمه بشر فارس من خدمات لدراسة الاثار العربية والاسلامية فاولى مني بالحديث عنها اساتذة الاثار واساتذة الفنون التشكيلية ، وانما الذي استطيع ان اتحدث عنه في غير حرج هو بشر فارس الكاتب المنشىء الفنان وبعض الوجوه التي اعرفها عن شخصية بشر فارس الانسان .

اما بشر فارس الفنان فاول ما يبدهك فيه امران : الامر الاول هو انك تقرأ له « مفرق الطريق » ثم « سوء تفاهم » ثم « جبهة الغيب » فتحس بانك ازاء رجل واحد لم يتغير خلال ثلاثين سنة ، ولم يتطور ولم يجر عليه ما يجري عادة على ادب الادباء من نمو تدريجي الى الكمال او الانهيار ، فكأنما بشر فارس قد اهتدى منذ حياته الباكرة الى رقية ادبية استقرت في وجدانه ولم يستقر في وجدانه غيرها او لعله ولد بها — ولازمته هذه الرقية طول حياته . والامر الثاني هو انك حين تقرأ له كل هذه الاشياء تحس احساسا واضحا بانك ازاء كاتب يعتقد ويثبت بالممارسة ان الذي يهم في الفن والحياة ليس ما تقوله او تعمله ولكن الطريقة التي تقوله او تعمله بها ، فالفن او الحياة ليست مضمونا يبحث لنفسه عن اسلوب خاص يعبر عنه ، وانما الفن والحياة اسلوب اولا وقبل

كل شيء ، بل وربما اسلوب اولا واخرا ، او بعبارة اخرى الفن والحياة اسلوب مشتمل فيه مضمونه ان لم يكن هو نفسه المضمون . فان كان قد قدر لك ان تعرف بشر فارس رجلا لم يسمعك في كل مرة تلاقيه فيها او تستمع اليه فيها الا ان تذكر قول الناقد الكبير بيفون ان الاسلوب هو الرجل او ان الاسلوب هو الانسان .

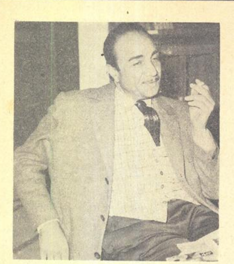
فان اردت ان تعرف ما هذه الرقية التي اهتدى اليها بشر فارس او ولد بها فلازمته في أدبه طول حياته . فاستمع اولا الى كلام سميرة في « مفرق الطريق »

« تريدون الامور واضحة خوفا على سلامة اذهانكم . أينبغي لكل امر يحصل ان ينساق الى ناحية معلومة في ملتويات افهامكم تنتظره ؟ متاع يندرج في خزانة لا شيء اكره الى الحياة من اطار يعد لمجراها ، ان الروح والفكر مع ما يجيش فيهما من نزعات ووثبات ينكـران السد والحد . انكم تفتكون بهما . »

ثم استمع لقول الشخص الثالث « هو » لسميرة في نفس المسرحية : « علمتني اليوم ان الحياة مجموعة سوء تفاهم » .

فان ذكرت هاتين القضيتين معا استطعت ان تضع يدك على مفتاح ادب بشر فارس وربما شخصيته ايضا . استطعت ان تفهم كيف يمص الكلب القصب في « مفرق الطريق » ، واستطعت ان تفهم قول سميرة : « اني عرفت ذلك السراب ، بل شربت منه . وكان الماء اجاجا على لذة واني اود لو ارتشفه مرة اخرى . آه حتى هذا لا يفوتني اليوم . الحب معترك قتلاه الاوهام » واستطعت ان تخوض في نقائض « جبهة الغيب » الى اخرها وان تخرج منها بمعنى عميق . وحين اقول « تفهم » لا اقصد انك تفهم كل هذا بالعقل الذي يفهم الاشياء والافكار ، وانما اقصد تحس انك تفهم ، او تفهم احساسك وخيالك وباية ملكة فيك الا المنطق الصوري الذي يعلمك ان التناقض هو سبيل الخطأ فبشر فارس ينتمي الى مدرسة من تلك المدارس العديدة التي تقوم على ان التناقض هو سبيل الصواب، وهذا معنى سوء التفاهم الذي يحدثنا عنه كثيرا . لا اقصد سوء تفاهم الانسان مع الغير ولكن سوء تفاهم الانسان مع نفسه ، وسـوء تفاهم الالفاظ مع الالفاظ ، وسـوء تفاهم الافكار مع الافكار . شيء واحد اعتقد ان بشر فارس نجح فيه او اهتدى اليه بسليقته الخاصة ، وهذا هو ازالة سوء التفاهم بين الافكار والالفاظ المعبرة عنها ، او بين الالفاظ وما تتضمنه من افكار . فان انت قبلت الفاظه قبلت افكاره ايضا ، وان انت قبلت افكاره قبلت الفاظه وهذه هي عملية المصالحة التيجعلت منه فنانا سيرد اسمه في كتب تاريخ الادب على نحو ما ، قد يتعب النقاد في تصويره لغموضه مبنى ومعنى ولكنهم بغير شك سيحاولون تصويره .

فبشر فارس اليوم نموذج للفنان المرفوض ، لانه سقط بين مدرستين : بين مدرسة المعقول ومدرسة اللامعقول . ونحن اليوم نقبل اللامعقول كما نقبل المعقول لاننا قد تعلمنا ان اللاتفاهم اساس من اسس الحيـاة وبالتالي فهو اساس من اسس الفن . ولكن لم نتعلم ان سوء التفاهم ، وهو شيء غير اللاتفاهم يمكن ان يكون اساسا للحياة والفن . فاذا ذكرنا جملة حقائق عن بشر فارس الانسان امكننا ان نفسر هذا الذي يمكن ان نسميه « سوء التفاهم الكبير » او « سوء التفاهم الاكبر » . فلنذكر انه ينتمي الى تلك الفئة الغريبة التي يمكن ان نسميها اقلية داخل اقلية او الاقليـة المركبـة لا الاقليـة البسيطـة . فلانه لبنـاني الاصـل اتخذ له مصر وطنا قبل ان يولد جاء مصريا دون ان يفقد لبنانيته، وهذا اول سوء تفاهـم في حياته ، فلـو قد ولـد ونشا في لبنان ثم تمصر لتمت فيه مصالحة من نوع ما ، مصالحة من يعرف له جذورا واضحة وتربية واضحة ثم نقلت نبتته الى مشتل كما حدث لجماعة منالمغتربين من شعراء المهجر، جبران وايليا ابو ماضي وامثالهما اما ان تكونجذوره لبنانية اغتذت وترعرعت في ارض مصر ، بل في ريف مصر حيث لا ارز ولا ثلوج ، ولكن رغم اختلافها ليست غريبة كمهجر شعراء المهجر في امريكا بحيث تغري المرء ان يعيش في عالمين مستقلين في وقـت واحد، وانما قريبة قربا يوجد اللبس والاختلاط . ولانه ماروني المذهب نما في بلد المارونية فيه مشتولة بلا جذور عميقة في تاريخ البلاد بل لا تزال الى اليوم لونا من العبادة الخاصة التي لا يقتحم اسرارهـا الا اتباعها ، نشأ فيه سوء التفاهم الثاني . فلو قد كان مارونيا فـي لبنان حيث الموارنة كثيرون وحيث كنيستهم كنيسة قومية لتمت فيه هذه المصالحة التي تحدثنا عنها على وجه ما لتعدد الروابط الاخـرى مع البيئة . ولو قد كان مسيحيا ارثوذكسيا او بروتستانتيا لبنـاني الجذور او كاثوليكيا نبت في مصر فلربما اندمج في اقباط مصر وتمت في روحه مصالحة من نوع ما مع من يشاركونه عبادته في مصر واذا كان اللبناني الماروني شيئا ممكنا فالارجح انه من اشق الامور على روح الانسان ان تكون مصرية مارونية . ولان بشر فارس كان فرنسي الثقافة عربي العلم والاهتمامات العقلية نشأ فيه الصدع الثالث فهو قد قصد باريس طالبا لا لدراسة الادب الفرنسي او الحضارة الاوروبية ولكن ليدرس الادب العربي ، وهو قد أتقن الفرنسية كأحد ابنائها المثقفين ثقافة عالية وكان يكتب بها اكثر اعماله العلمية الكثيرة ، لا يكتب بها عن ادب فرنسا وحضارة فرنسا ولكن يكتب بها عن ادب العرب وحضارة العرب بل يكتب بها عن اخص وجوه هذه الحضارة العربية التي لا يعرفها الا المتفقهون في الحياة العربية والتاريخ العربي . ولو ان بشر فارس كان يتقن الفرنسية كل هذا الاتقان ويرطن بالعربيـة شأن بعض المولدين او شأن المستشرقين لما كانت امامه مشكلة ولكنه كان ضالعا في اللغة العربية عارفا باسرارها محيطا بأدق دقائقها الى درجة لا تتوفر الا في رجال المجمع اللغوي وفي اساطين اللغويين في العالم العربي . ومن عاش بهذا الازدواج الغريب طول حياته العلمية والادبية حاول الوانا من المصالحة تبدو مصالحة في الظاهر ولكنها في حقيقتها مجاورة خارجية. ومن هنا كانتعامة كتاباته تظهر باللغتين معا متجاورتين في كل كتاب ، فكان ينشيء نفس النص مرة بالعربية ومرة بالفرنسية وينشر الصيغتين معا في كتاب واحد . وفي الادب كان يكتب عن سميرة واحياء مصر وعن زينة وفدا وهادي والامام وجبل



بشر فارس

شبيه جدا بجبل لبنان في « جبهة الغيب » ، ومع ذلك يهتم اشد الاهتمام بان تمثل مسرحياته في مسارح الجيب الفرنسية في باريس وبالالمانية في سالزبورج وفيينا ويتكبد في سبيل ذلك المشقة كـل المشقة . وكان في بشر فارس نوع من الشطحات الروحانية التي تجعل المرء يحاول ان يقرأ ما هو مسطور على جبهة الغيب . ويعدل عن العقل كاداة لفهم الحياة ولخلق الفن ، ومع ذلك فقد كان فيـه احتفال بوجه الحياة المادي واحترام تام لترف الحياة وربما عرضها . وهكذا دواليك .

كل هذه النقائض وجدت في نفس بشر فارس الى درجـة سوء التفاهم ، سوء تفاهم الانسان مع نفسه ، وقد قضى حياته وخصص ادبه لحل سوء التفاهم المركب هذا ، واعتقد انه قد اهتدى الى نوع من الحل وهو لا يزال في سن باكر . فانشأ لنفسه نوعا من الاسلوب في الحياة والادب مدروس بعناية فائقة قل ان تجد مثلها عنـايـة . وملتزم به في كل شيء يقال ويكتب ويعمل الى درجة جعلت منـه طبيعة ثانية . وجعلت الناس لا ترى في بشر فارس الا هذا الوجـه الغريب في ادبه وسلوكه وهذا الاسلوب هو أن يجعل من الحياة نفسها فنا جميلا معقدا اشد التعقيد . فكان يعنى بهندامه ومظهره لا كما يعنى صفوة اهل الذوق ممن يتابعون افضل الازياء والاساليـب ولكن ليعبر عن شخصيته المنفردة وينشيء زيا خاصا به يميزه عن كل ما عداه ومظهرا لا يخطئه من يراه ، بل كان يعنى بزيه ومظهره الى درجة تلفت النظر وتصرفه الى تأمل غرابة الالوان والخطوط والاشكال كذلك اقام في داره ديوانا او ايوانا شرقيا ان رأيته خلت انك ترى جناحا في قصر امير عربي ممن تقرأ عنهم في قصص شهرزاد . كذلك كان بشر فارس يكتب فيتأنق في الفكرة ويتأنق في اللفظ ولا يمشـي ابدا في الطريق المطروق بل يمشي وحيدا في طريق فريد هو طريق بشر فارس . فكل الناس يحدثونك عن جبين الغيب وما هو مكتـوب عليه من اسرار ، اما بشر فارس فيحدثك وحده عن جبهة الغيب وكل الناس يقسمون مسرحياتهم الى فصول او مشاهد ، وبشر فارس وحده يقسم مسرحيته الى مراحل او ازمنة . فان قرأت عبارة كهذه العبارة :

« رأيت صخورا توشحت بالياسمين . اخذت ترقص دوارة . بين لفتتين لمحت اليه يصعد ، شبح شجرة يبس عودها وقسا . ظل الشبح يسرع من مرقى الى مرقى ، تدفعه يدان على مثال يدي ، الا انهما من صوان . كان كالليل اسود ، ولكن في غيابة جفني فز برق . ما كنت اجرؤ على ندائه . »

لم تتردد لحظة واحدة في ان تقول : هذا بشر فارس . وكان يبحث دائبا في بطون المعاجم ليعرف ان كانت العرب تقول « لمحته » ام تقول « لمحت اليه » ، فان وجد ان الوجهين جائزان اختار افلهما شيوعا . وكان يهتم اشد الاهتمام بان يسكن باء شبح ما دام العرب قد سكنوها حتى ولو قرأها عرب اخرون بفتح الشين والباء سواء عن صواب او عن خطأ مشهور . فكل الناس تفتح الاشباح اما من اراد ان يكون له زي خاص فهو يسكنها ، وهكذا « يفز البرق » و « تتواشج الخواطر وتتفاوت » اي تتفق وتختلف او تترابط . فان ضقت به ذرعا صرفت كل هذه الاناقة حاسبا انها من حذلقة المتحذلقين ، وان صبرت عليه رأيت درجة درجة ان هذا الاديب العالم انما كان يحاول ان يكشف عن علمه في ادبه وان يكشف عن ادبه في علمه وان يبتكر اسلوبا يزول فيه ما بين العلم والادب من سوء تفاهم ، وادركت انه انما كان يحاول ان يجعل القالب هو المضمون وان يجعل الاسلوب هو الرجل كما كان يقول بيفون ، لا استهانة منه بمضمون الفن والحياة ، ولكن لانه كان يرى ان الالفاظ تفكر باصواتها وان للافكار معاني باصواتها وان الشكل ليس مجرد اناء يصب فيه سائل هو المضمون .

القاهرة (الاهرام) لويس عوض

الابتسامة التي اختفت

كان موته حالما رشيقا مثل خطواته واربطة عنقه والفاظه .. فقبل ان يموت باربع وعشرين ساعة كان يجلس بيننا في الاخبار يراجع مقالا له وهو يبتسم ابتسامته الدائمة التي لا يمكن ان ينساها كل من رآه . وكنت اذا نظرت الى وجهه في ذلك اليوم قرأت كـل معاني الحياة المشرقة ولم تقرأ على الاطلاق معنى من معاني الموت . وكان المقال الذي يراجعه عنوانه « مسرح الجيب في خطر » .. وبعد ذلك بيوم واحـد احترق مسرح الجيب ومات كاتب المقال .

وعندما اخبرني زميلي محمد تبارك بنبأ موته لم اصدق .. لا لانه فوق الموت ، ولكن لانه كان في ذهني رمزا للحياة النشيطة ، وكنت اسأله دائما ان يقول لي سر الحياة الذي جعل منه رجلا لا تستطيع ـ من فرط نضارته ـ ان تعرف هل هو في الثلاثين او في الستين . وكان هو يحكي لنا ويستطرد في حكاياته كأنـه يعرف اكسير الخلود الذي نقرأ عنه في كتب الاساطير والخرافات . ذلك هو بشر فـارس الذي كان مثالا نادرا للايمان ـ سلوكا وفكرا بنظرية « الفن للفن » وكان عمق الايمان فيه يقنعني بان الانسان المؤمن دائما فيه لمسة من السحر النبيل حتى لو كان ايمانه بقضية خاسرة مثل قضية « الفـن للفن » .. ان الايمان في حد ذاته يمنح الانسان ظلا من الجمال الروحي الذي لا يتكرر .

وكان هذا الايمان الشامل بالفن عنده هو الذي دفعه الى الربط الذي لا انفصام فيه بين الادب والرسم والموسيقى واثاث البيـت ، ولذلك كان بيته تحفة فنية رائعة عندما رآها ثروت عكاشة يوما وهو وزير للثقافة عرض عليه ان يشتريها منه ليجعلها معرضا من معارض الفن . فلقد جمع في هذا البيت الذي صرف عليه كل ثروته ألوانـا من الفن الشرقي الاصيل : فن الشام والعراق والحسين وايران وتركيا والهند واوزبكستان . لم يكن في هذا البيت قطعة واحدة من الاثاث عمرها اقل من مائة عام ، وما كان من بينها قطعة واحدة الا وقد قطعت مئات الاميال والايام لتستقر في اخر الامر بين جدران بيته الانيـق الجميل .

ودفعه ايمانه الصوفي بنظرية الفن للفن الى الاغراق في الرمزية ، لانه كان يرى ان الفن « لعبة الهية » ، لا يجوز ان يفهمها الا من حاول هذا الفهم وبذل في سبيل ذلك الكثير ، وما قيمة الفن السهل المفهوم الذي يعطيك نفسه من النظرة الاولى ، انه يكون بذلك شيئا رخيصا لا جدوى منه مثل كلام المقاهي وثرثرة المصاطب ، اما الفن الحقيقي فهو الذي لا يفهمه الانسان الا بالعرق وجهاد النفس . وكنت اختلف معه في فهمه للفن واقول له دائما : ان الفن رسالة انسانية وخاصة في مجتمعنا الذي يكافح من اجل الحرية والخبز ، ولكنه كان يرى في هذا المنطق عجزا وخروجا على ما في الحضارة من عمق واصالة . ورغم اختلافي معه كنت احبه واجد فيه ظلا جميلا استريح اليه . فقد كان الاختلاف معه اكثر رفقا وحنانا من الاتفاق مع بعض الذين نلقاهم في حياتنا كل يوم .

ولقد جنى بشر فارس الشوك من اسرافه في ايمانه « بالفن للفن » فظل بعيدا عن الجمهور بلا شعبية حقيقية ، رغم ان مسرحه عـرف طريقه على مسارح اوربا ، ورغم انه وجد لنفسه مكانا ذات يوم بين مثقفي باريس وادبائها ، ولكن حنينه العاطفي العميق الى الشرق منعه من الرحيل الابدي .. فعاد الى الشرق ليموت على بساط فارسي وبجانبه رائحة حلوة وافدة من الحسين .. وقلوبنا تبكي فيه الابتسامة الدائمة الجميلة التي اختفت ، والتي اخذنا على بشر فارس عهـدا الا ننساها حتى الموت .

القاهرة (الاخبار) رجاء النقاش

بشـر فـارس

قرأت في جريدة (وطني) نبأ نعي الكاتب الاديب بشر فارس . ولم اقرأه في صحف اخرى كما لم اقرأ كلمة عنه ، غير ما كتبه الاستاذ رجاء النقاش في (الاخبار) امس . وقد تريثت في الكتابة عنه حتى استوثق من الخبر ، فقد استبعدت ان يخرج رجل مثله من الدنيا في مثل هذا الصمت الكئيب .

عرفت بشر فارس منذ امد طويل وعرفت قبله شقيقه يوسف فارس في مناسبة عائلية ، فقد كان ابوهما على صلة بالقرية التي نشأت فيها ، وعلى صلة خاصة بأبي وجدي رحمهما الله . ولما توثقت الرابطة بيني وبين بشر فارس ، تفتحت لي منه آفاق جميلة . واحسست منذ تعارفنا بطيبته وبساطته ، طيبة فنان اصيل وبساطة انسان بكل ما في هذه الكلمة من معنى .

ولست اعرف في المشتغلين بالادب رجلا نذر نفسه له في صمت ودون رغبة في الاعلان مثل بشر فارس . وكان يعالج اشق انواع الادب ، ولا يرضى بالسوقي منه ولا ما يذيع بين العامة ، بل يأخذ الرفيع السامي ، وكأنه ينحت في الصخر اجمل التماثيل ، او كأنه – كما قال عنه الدكتور لويس عوض ذات مرة – صاحب حانوت للجواهر الغنية باصالتها وليس بما ترسله من بريق اخاذ .

وكنت اجد مشقة في قراءة بشر فارس ، ولكنني كنت اجد كفاء المشقة فيضا من البهجة العميقة لا حد له ، وينبوعا من الانتشاء احس انه يتفجر من ابعد ابعاد النفس .

*

حزنت لوفاة بشر فارس وعجبت في الوقت نفسه ، حزنت لان الادب العربي والتاريخ الاسلامي ، كليهما فقد فيه خادما امينا دءوبا لا يكل ولا يمل ، وعجبت لانني كنت اراه دائما في قمة الحيوية والصحة ، دائم الابتسام والرضاء ، واسع الامل والاشراق .

ترى هل من نواميس الحياة ان يغتال الموت من يضحك لها ومنها ، يستوي عندها ان يمالئها الحي او يناصبها العداء ... كان ابعد شيء عن خاطري ان يترك بشر فارس الحياة في هذا الوقت ، فكانت المفاجأة في نفسي قاسية .

كان احيانا يفضي الي في حياء انه لا يجد التقدير من الناس ، ثم يمضي ضاحكا وكأن الشكوى ليست الا لمحة عارضة في حياة فلسفت الحياة ... الان يمضي الى جوار رب عنده الجزاء الاوفى .

القاهرة (اخبار اليوم) **محمد زكي عبد القادر**

مـات بشر فـارس

وتلقينا من الاستاذ انور الجندي الكلمة التالية في الفقيد :

توفي خلال شهر فبراير الماضي الدكتور بشر فارس الكاتب الذي عرف بابحاثه الادبية والتاريخية والذي نشر عددا من المؤلفات وكتب عشرات المقالات في المجلات الادبية العربية والفرنسية .

ولقد لفت نظري الى ادبه فن الاربعينيات في هذا القرن ، حيث ارتبط في ذهني بالدكتور زكي مبارك – وكلاهما احرزا اجازة الدكتوراه في وقت متقارب من جامعة باريس .

ولقد بحثت عنه في عام ١٩٥١ وما بعدها حيث تطلعت الى ان القاه واتحدث اليه ، وكنت بصدد اعداد دراساتي عن الادباء المعاصرين وقد تحقق لي ان القاه مرات في شقته الفاخرة ، التي نسقها على النمط العربي وزخرفها بعشرات من النمارق والصور والتماثيل والرسوم والسجاجيد والاواني الملونة المصنوعة من القاشاني والمثورة في نظام دقيق بين كتبه العديدة في صالون مكتبته الواسع ، حيث تفوح رائحة البخور ويستسلم القادم لجو روحي يعيد صورة الشرق القديم في اسماره واحفاله .

ولقد وجدت الدكتور بشر حفيا باللغة والتحقيق العلمي حول النصوص الفقهية والتاريخية على طريقة المستشرقين والباحثين الغربيين الذين ربما كانوا حفيين بجوانب ليست ايجابية بالنسبة لنهضتنا وحضارتنا وربما شايع هذا او ذاك منهم اعجابا ومتابعة على عاطفة التلمذة او الاعجاب بمناهج البحث الاوربي ، ودون القدرة على التحرر من طابع مفروض .

ولعل ابرز الفنون التي عرف بها الادب الرمزي في قصته « مفرق الطريق » التي مثلت في عديد من مسارح اوربا ولقيت تقديرا فائقا . وكان عضوا في المعهد الفرنسي للاثار ودائرة المعارف الاسلامية في هولندا . وبالجملة فقد ترك بشر فارس تراثا ضخما وعملا كبيرا جديرا بالبحث والتقويم .

القـاهرة **انور الجندي**

رأي في نثر بشر فارس

بشر فارس هو ، في نثرنا الفني المعاصر ، نفَس برأسه ينتمي الى اعرق الاساليب العربية ، على انفتاح منه وشخصي اداء .

هذا النثر تختصره ، في رأيي ، اثنتان : صناعة العالم وروح الاديب. وربما كانت صفة العالم اغلب على طبعه ، والى اسلوبه اقرب من آية الاديب . غير انه ، في الحالتين جميعا ، لا يبرح في اكابر المنشئين .

بشر فارس ، ناثرا ، عصي مقاله ، صعب مرتقاه ، الا على القلة . كان هو يصطفي اللفظ والقارىء في قصد معا ، يحمّل النص اضعاف ما به من ظاهر معنى ، حتى ليبدو نصه وقد حق له المزيد من انعام الفكر وبعد الروية .

ثم هو ، في مدرسة النثر عندنا ، قلم في نهضة الاقلام التي صنعت ، فابدعت ، فجمعت اناقة بري الى عمق مضمون ، اذا ابت ، كما يقول بشر فارس ، ان يكون « التعبير مصنع ترديد والفاظا كلها محدودة ، قاصرة ، مطروقة ناحلة » .

ولكن لم يؤثر عنه تفجر الينبوع ، ولا العزف بالكلم ، في توتر عبارة ، على ما قد اتى في « تلوين المبهم وتشكيل السانح » .

بشر فارس ، في كثرة ما له وضآلة ما عليه ، حدث في نثرنا اي حدث .

بيروت (الجريدة) **خليل رامز سركيس**

بشر فارس الاديب الغريب

طوى الموت ، بانطواء بشر فارس صفحة مشرقة من صفحات النهضة الادبية الحديثة القائمة على المشاركة في ادب الانسان على مستوى عالمي . فقد كان مؤلف « جبهة الغيب » صاحب مدرسة خاصة في الادب الرفيع المنطوي على فكر رفيع . فهو ما تلهى في التفتيش عن اللفظة لمجرد التفتيش المعجز بل سعيا وراء بكارة خصبة لم يات الزمان على فعاليتها . فمن هو الدكتور بشر فارس وما هو الجديد الذي ميز اسلوبه.

غرابة وصعوبة : كان شحيح النتاج لانه كان صعبا مع نفسه ومع القارىء لا يسهل فيدنو من المستويات الدنى ، بل يرتفع ليرفع معه قارئيه . كان يعتقد ان بين الكاتب والاديب فعل تبادل ، عملية اخذ وعطاء على تساوي الصعيد . وقد قال في ذلك « مشكلتي ان ادبي ، شعرا ونثرا ونقدا فلسفيا وفنيا مطبوع عند عامة القراء بالصعوبة . وذلك لان عامة القراء درجوا على تناول الادب مادة للتسلية او الاستمتاع العابر ، ولانهم الفوا التراخي كلما عرضت لهم صفحة تستلزم التفكر او الاستشفاف » . ولعل لشخصية الكاتب يدا في هذا الانغلاق الادبي

فقد عاش غريبا في محيطه غريبا حتى بين الاقربين اليه فاضطر الى الانطواء الذاتي وجعل من « سوء التفاهم » شرعة علاقته بالناس . كان مرهف الحساسية في جو يستبد به الجشع في حياته واثر هذا الالتزام على نهجه الكتابي .

اما الموضوعات التي تصدى لها بشر فارس فليست تلك التي تبوخ في غد بل تهم انسان كل عصر وبلد فهو في « مفرق الطريق » يعالج مشكلة المرأة الشرقية المحرومة من اطلاق شعورها الدفين وهو في « جبهة الغيب » يتناول محاولة الانسان ان يتستخلص من الضعف الفارق في القلق والحسرة قوة تدفعه الى استطلاع ما يرهب منه وهو راغب فيه . وموضوع الرهبة والرغبة موضوع سعي الانسان في تحرير اندفاق الحياة وتعليق وقته العابر بدوام الله . ذلك الانسان ان هو الا كتلة « هموم تحترق » وتترجح بين ارض تشد الى تحت وسماء تشد الى فوق ، وتبقى معلقة بين الطرفين معرضة لاعاصير الوجود .

جبهة الغيب : قد تكون « جبهة الغيب » اكمل واروع ما خلفه بشر فارس . انها احدوثة شرقية في خمس مراحل ، على حد تعبير المؤلف ، اخرجت بشكل مسرحي خاص ينسجم مع مفهومه وهو ان المسرح الذي لا يتحقق فيه نضال الابطال فعلا وقولا انما هو مسرح كاذب فاتر ، اذا اعطى لا يغني . وقد جعل من موضوعها توسيعا لفكرة اقصوصة ذات حوار عنوانها « رجل » . وخلاصة هذه القصة ما يلي :

في زاوية من الارض جبل عسير المنال على رأسه بيت مفقود من ناحية السماء ، طريقه وعر والتصعيد فيه خدعة الموت . ولم يقو على بلوغ هذا البيت سوى اثنين . وقد عاد احدهما كسيحا من الاعياء والاخر مكفوفا . عادا وبين يديهما الابد .

ويقوم الصراع حول حرية الانسان ، الكائن المحدود الفاني الذي يصبو دوما الى الخلود ، الى امتلاك الابدية . صراع نفس تريد في جسد لا يستطيع . انها الصلة الخفية القائمة بين الارض والسماء .

لقد وعى بشر فارس رسالة الادب تنسكا للحرف كتابة واطلاعا فاستمر لها وفيا حتى انطفأ قلبه المعذب الغريب .

بيروت (الجريدة) جميل جبر

بشـــر فـــارس

منذ اسبوعين هوى نسر من نسور الادب ... مدماك جبار من مداميك الكلمة المنحوتة يسقط بينما كان يعارك الحياة الفكرية وما فيها من مشاحنات ونزاعات وتقارب وتلاوين ...

شخصية ادبية فذة افلتت من قيود الادب الضيق ، لتقفز خلـف الشطوط حيث للفكرة العميقة الغور قيمة ، واللفظة المنمقة جلال ، والاسلوب المتين والرصين مكانة ...

شاعر بكى لفراق الاحباب ، وصور الوصال في لوحات تبقى للاجيال في عنفوانها ...

بحاثة من الطراز المرموق جال في مجاهل الحياة العربية القديمة ، فاظهر عظمتها وكشف عن سر بقائها ...

نقادة من الرعيل المحبب ما حاد عن قولة الحق ، وما كتب ليجرح او يشتم ...

مسرحي ابدع في ما ترك للخزانة العربية التي تفتقر الى لون مسرحي يضاهي المسرحية الغربية في وقفتها المتعالية ورصيدها الخالد ...

وطني حمل معه الولاء لارض الاجداد الى ضفاف النيل ، وراح يتغنى بثلج صنين وارز لبنان ..

مصلح اجتماعي وجه الشباب نحـو الدروب السليمـة الاهداف ، وشجعهم على الدفاع عن كيان الاوطان ، ووضع بين ايديهم امثولات كانت لتطوير حياتهم القومية ...

رجل كان قريبا من الله ، وكان متعلقا بمارونيته حتى حين غاص في باطن الدين الاسلامي الحنيف منقبا ، ثم وضع المقالات والابحاث الطوال ليظهر تقارب المسيحية والاسلام . كما انه حارب الطائفية ودعا الجيل الطالع الى ان يقضي على اخطبوطها ...

ابتسم للحياة ، واخلص للصداقات ، وآمن بتطوير العلم ، وفلسفة الزمن ... وكان يريد من ايامه ان تمده بعافية ليبقى على تقارب مع القلم والورقة . كان يأبى ان يأخذ لنفسه راحة . فالحياة ، بنظره ، صراع وعراك . وعلى الانسان ان يصارع ويعارك ليظفر . عليه ان يأخذ من مجتمعه دروسا ، وان يكيف اوقاته ويباور مواقفه . عليه ان يستمع لهذا ويسجل اقوال ذاك ، والا يتهرب من المسؤوليات الجسام الملقاة على عاتقه . عليه ان يناقش التيارات الفكرية ثم يحدد موقفه منها ، ولا غرو اذا كان موقفه عنيدا ...

كان يامل بالحياة . ولكن هذا الامل سرعان ما تلاشى ، وخفت نوره . فالدهر غدار . انه لا يرحم . لقد قضى عليه وهو فـي اوج اعماله الاجتماعية والادبية ...

على ضفاف النيل ، مات فجأة الدكتور بشر فارس ، سكرتير المجمع العلمي المصري ، وعضو معهد الاثار الفرنسي ، وعضو جمعية نقاد الفن العالميين بفرنسا . وقد روع نبأ وفاته الاندية الادبية . ولكنـه ترك لمكتبات الضاد الثقافية ذخرا لا يتفانى ، مهما عصفت الاهواء وازدادت تقلبات السنين .

غيره من ادباء الطليعة في الامصار العربية عني بفن واحد من فنون الحرف . اما هو ، فقد شذ .

لقد طرق المسرحية ، ونظم الشعر ، وبحث في الدين ، وكتب في النقد ، وعالج القصة ...

في عالم الغرب تبوأ مكانة ادبية حسده عليها رجالات الكلمة المنمقة هناك . لقد كان على اطلاع واسع بالتيارات الادبية ، المتعددة المشارب في اجواء باريس وروما ولندن ونيويورك ... كما انه زار اكثر من عاصمة غربية ، واختلط بادبائها ، ووقف على موجات الادب الحديث ونزعاته .

كتب بالفرنسية كأروع ما يكتب واحد من ابنائها . وكتب ليعـرف ادبنا العربي الفني الى الامم المتحضرة ، ولا عجب فهـو خريج جامعة السوربون في باريس ، وتلميذ المستشرقين لويس ماسينيون وجود فروا ديمومبين وفوكونيه . وقد ثبت قواعده هناك ، اول ما ثبـت ، على اطروحته « العرض عند عرب الجاهلية » .. ومن مؤلفاته بالفرنسية . « قصص ، مفرق الطريق ، المشكلات التي تعرض للكاتب العربي الحديث، كتاب الترياق » الذي نال جائزة اكاديمية الفنون الجميلة بباريس عام ١٩٥٤ . وفي نيويورك صدر له بحث بعنوان « مخطوط عربي مزوق في النبات » ، وفي برلين كتاب بعنوان « طلاسم مصورة » .

اما مؤلفاته العربية ، فانها عديدة . منها « سوء تفاهم » مجموعة قصص ظهرت في القاهرة عام ١٩٤٢ ، وقد اخذ جميع مواضيعها من البيئة التي كان يعيش ضمن اطارها . « سر الزخرفة الاسلامية (في فلسفة الفن) » . « مباحث عربية » وهو سلسلة مقالات فـي اللغة والاجتماع . « مفرق الطريق » مسرحية بفصل واحد مع توطئة ، صدرت علم ١٩٣٨ بالقاهرة . وفي سنة ١٩٥٠ مثلت بالفرنسية في باريس ، وبالالمانية في مدينة سالزبورج اثناء مهرجانها وذلك عام ١٩٥١ . وفي عام ١٩٥٣ مثلت هذه المسرحية في فيينا . « جبهة الغيب » مسرحية تروي احدوثة شرقية في مراحل خمس ، طبعت ببيروت عام ١٩٦٠ . « سوانح مسيحية وملامح اسلامية في مخطوط عربي مزوق في القرن السابع » .

تقرأ هذه المؤلفات فاذا المعاني فيهاعلى رحابة، وعلى مقربةمن يديك. ولا بد ان تسلم بعبقرية واضعها ، وتنحني امام عظمـة الكلمة عنده

وسحرها المتغلغل . فالدكتور بشر فارس ينحت جملته ، ويدقق في تكوين الفكرة ..

اما في الشعر الحديث ، فانه اثبت فيه مقدرة وهو يغوص في مجالاته . ورغم انه ما كان غزيرا فانه بقي صورة حسية لواقع لسناه...

اسمعه يرثي امه :

لولا انت ما اتت الدنيا الينا
هذبتها فلا تفافلنا بالمول الاخرق
يا حجر السماحة من بعدك هزل معنى العطايا
كانت تطلع عرائس في هفائف نور من منجم حبك . »

وبعد ان يتحدث عن فضائلها وحنانها ، ويذكر الفراغ الذي سيتكون بعد الفراق المؤلم ، يقول :

« القي باهداب البساط — تستعصم بها في صحراء الغرور
يا واحة جذبها الحق الى بستان الامان

الاهداب ... فتات مائدتك مادب — مواكب في مجاهل الصدور »

والدكتور بشر فارس فتن بجمال المرأة . فانبرى يصور هذا الجمال، ويدفق عليه نعوتا طرية وجذابة ، ويحيطه بالوان زاهية مغرية . ولا عجب فالمرأة قد اثرت عليه . قال لي عندما زار بيروت منذ ثلاثة اعوام :

— كل بشري له احساس حي، اراني مدينا للمرأة بجملة من الخلجات والتاملات ، بل اعترف بان للمرأة يدا علي من حيث انها بفيض رهافتها اخرجتني من الكثافة الى الرفاهية احيانا .

اسمعه يصف غانية ركع على قدميها الرجال :

« مالت على ندي الوف
تساله هل تلف
من زور اغماض العزوف
او غيظ عزم الكلف
او فن خطاف القطوف »

ثم يتابع وصفه للثدي الجوعان فيقول :

« من زور اغماض العزوف
يلم تحت الهدب
حسرة جوعان انوف
تفيض نارا تدب
ولهى الى الضلع العطوف »

واسمعه يتحدث الى القيثار في احدى مسرحياته :

« أيها القيثار
رفرفت نشيدا هائما هلعا
فرت من اوكار
علقوا بها قصيدا ردده في كعبة الوطن »

ويناجي هذا القيثار الذي كان يطرد عنه هموما ، ويضفي عليه الوانا من الغبطة والانشراح :

« يا اخي في الظما
رجع اهازيج انهار صدقت عندها الاساطير
غمرت حلم الاوتار فماجت حرة مرحة
تشيع جهادي في مهاوي قفار
نصبت فيها الاخطار نصيبي الخطر »

وبعد ، ان المصاب لفادح . خسارة الادب بهذا الانسان المعطاء كبيرة . ولكنه في خلوده يبقى ذلك الاديب الخلاق واللغوي البصير ، والشاعر الذي لا ينضب ينبوعه ، والمسرحي الذي حمل العالم الغربي على الهتاف لقدرته الفنية ... واني انقل هنا نعي الاستاذ البير اديب ، في بيروت ، لصديقه الدكتور بشر :

« نكبة قاصمة ومصيبة موجعة اليمة . فقدنا الشاعر ، الكاتب ، الباحث . بل العبقري الفذ . مفخرتنا الادبية التي بها نعتز ونشمخ . تركيز فكري على صعيد عالمي . ادب هو هبة الزمن وفخر هذا الجيل. ان عد نوابغه كان من المهم سطوعا . سلخه القدر عن العرش سلخا . انتزعه الموت بقسوة ، ومزق قلوبنا بضراوة . كانه اراد اذلال كبريائنا بانتزاع تاج المجد عن رؤوسنا » .

بيروت (الجمهور الجديد) — ابراهيم عبده الخوري

لائحة بمؤلفات بشر فارس

في اللغة العربية :

« مفرق الطريق » (مسرحية في فصل واحد مع توطئة) القاهرة ١٩٣٨ . الطبعة الثانية ، مزيدة ، ١٩٥٢ — مثلت بالفرنسية في باريس سنة ١٩٥٠ ، وبالالمانية في سالزبرج اثناء مهرجانها سنة ١٩٥١ ، وفي فينا سنة ١٩٥٣ ، وفي مونستر — وستفلن بالمانيا سنة ١٩٥٤ .

« سوء تفاهم » (مجموعة قصص) القاهرة ١٩٤٢ .

« كلمة الشاعر » في « المقتطف » ابريل ١٩٤٥ .

« الظلال في الادب » في « الكاتب المصري » فبراير ١٩٤٨ .

« سر الزخرفة الاسلامية » (في فلسفة الفن) . مع ترجمة باللغة الفرنسية . من « منشورات المعهد الفرنسي » القاهرة ١٩٥٢ .

« ديوان شعر » الى الطبع .

« مباحث عربية » (في اللغة والاجتماع) القاهرة ١٩٣٩ .

« اصطلاحات عربية لفن التصوير » من « منشورات المجمع العلمي المصري » القاهرة ١٩٤٨ .

في اللغة الفرنسية :

« قصص » في « كراسات الجنوب » مرسليا ١٩٤٧ ، وصحيفة « بارول فرانسيز » باريس ١٩٤٨ .

« مفرق الطريق » في « المجلة المسرحية » باريس ١٩٥٠ . الطبعة الثانية ، « مطبعة مصر » القاهرة ١٩٥٢ .

« جبهة الغيب » منشورات دار شعر بيروت ١٩٦٠ .

« العرض عند عرب الجاهلية » (بحث في علم الاجتماع) باريس ١٩٣٢ .

« المشكلات التي تعرض للكاتب العربي الحديث » في « مجلة الدراسات الاسلامية » باريس ١٩٣٦ .

« مباحث » في « تكملة دائرة المعارف الاسلامية » ليدن ١٩٣٦ .

« مكارم الاخلاق » (عبارة اسلامية اخاذة) في « مجلة الاكاديمية الوطنية للعلوم » روما ١٩٣٧ .

« منمنمة دينية تمثل الرسول من اسلوب التصوير العربي البغدادي» مع موجز باللغة العربية . من « منشورات المجمع العلمي المصري » القاهرة ١٩٤٨ .

« مخطوط عربي مزوق في النبات » في مجموعة In Memoriam Ernst Herzfeld نيويورك ١٩٥٢ .

« كتاب الترياق » (مخطوط عربي مزوق من خاتمة القرن ١٢) مع موجز باللغة العربية . من « منشورات المعهد الفرنسي » القاهرة ١٩٥٣ — نال هذا الكتاب في باريس سنة ١٩٥٤ جائزة اكاديمية الفنون الجميلة وجائزة جمعية مصر — فرنسا .

« الفن القدسي في التصوير الاسلامي الاول » مع موجز باللغة العربية . من « منشورات المعهد الفرنسي » بدمشق في مجموعة Mélanges Louis Massignon ج ٢ بيروت ١٩٥٧ .

« طلاسم مصورة » في Festchrift Ernst Kuehnel برلين ١٩٥٩ .

« سوانح مسيحية وملامح اسلامية في مخطوط عربي مزوق في القرن السابع » مع موجز باللغة العربية . من « منشورات المجمع العلمي المصري » ١٩٦١ .